ايعجب السيد ان يرى عبده بعدما فكه من الرق ينقلب فيعقه ويسعى بكل طاقته لينتك به . امري ان ذلك الا وحش ضائر بل اوحش من الوحوش . لان الوحوش تشفق على اولادها وتتذكر المعروف اما ابن آدم فكنود عتق لا يكترث للاحسان بل يستفرص الفرص ليوقع بولي نعمته ويعذبه ويهتك سره ويهدر دمه

فالدكتور نعمان بن يوسف قره كله تكلف المشقات الوافرة وصرف المبالغ الطائلة وقضى سبع عشرة سنة يزاول الدروس في البلاد القاصية حتى اتقن علم الطب وحذقه . ولما ان بلغ اشده جاء سنة ١٩١٢ الى ماردين وطنه مستصحباً قرينته الفاضلة التقية الورعة استيلا بنت حنا طولو البلتمورية الكاثاليكية وهي في ريعان العمر . وباشر يشتغل بجد واجتهاد في تمريض ذوي العاهات . حتى اذا كانت سنة ١٩١٤ المشؤومة فوّض اليه رجال الحكومة شؤون العسكر المرضى فخدمهم وعالجهم ستة اشهر . وفي اذار سنة ١٩١٥ الدموية ارفدوه الى مذيات وعهدوا اليه تمريض التابور السيار تحت رئاسة راوف بك القومندان . فخضع الدكتور للاوامر وسار من ساعته مع نجله فيليب الصغير وقرينته الكريمة الى محل وظيفته وقام بمداواة العسكر ومعالجتهم خير القيام

غير ان القائم مقام والقومندان أبيا الا نفث سمها القتال بمن خدم وتعب وعرق وسهر لاجل الحكومة ورجالها . على انهما من بعد قتل اليعاقبة وسوق من تبقى وذبحهم . استدعيا الدكتور النجيب ودفعا اليه تلغرافاً ملفقاً منطوقه " تحولت ماموريتك الى ماردين . يلزم حضورك اليها عاجلاً " والا فستخرب ويهلك سكانها قاطبة ؟.

ثم انعما عليه بشيء من ماله الذي سرق قبل بضعة ايام واستعجلاه على السفر . وقال له القائم مقام اني عربوناً لإتعابك امرت الجنود ان يحضروا حصاني الخاص لتركبه . وقال راوف بك القومندان اني مرسل معك حفظة يوصلونك بالسلامة (بالخيانة) الى ماردين

فاطمأن قلب الدكتور نوعاً واعلم قرينته النبيلة فقالت لا بد من السفر والا اضطرونا ان نغادر مذيات قسرا . فاحضروا الفرسين فاردف الدكتور نجله فيليب وراءه وخرج العروس والعريس يتبعانهما شرذمة من الجنود الارجاس الخالعون يتقدمهم صالح بن احمد الحلوصي المارديني وكان قد اسر اليه القومندان ان يقتلها ويستحي الصبي ويرده اليه

ولما وصلوا الى شول الات امروهما بالنزول عن حصانيهما وعروهما من ثوبيهما واحاطوا بهما كالكلاب الكلبة وحركوا اذنابهم كالخنازير النجسة ونشموا في ضربهم وقضبهما بالمناوبه ضربة لهذا وضربة لتلك . وكانوا يقولون للدكتور . اما تعجبك الادوية التي كنت تصفها لنا . خذ لك دواء يصلح لك . مكافاة لاتعابك ؟ وكانوا اذا رفعوا السيدة استيلا او صحنوها يقولون لها كانت اجنبية غريبة عن تركيا فيقتضي ان نعزك ونحترمك اكثر من زوجك ويا ليتهم وقفوا عند هذا الحد وفتكوا بهما بالضرب والتنكيل . غير ان قوماً حببت اليهم الخلاعة والفحشاء وكرّه اليهم الطهر والحياء ابوا الا ارتكاب ما هو اشنع وافظع . فانهم عروا حليلة الدكتور الطاهرة وركبوا منها الفاحشة الواحد بعد الاخر بالمناوبة كالخيل الشموسة الجموحة مدة ثلاث ساعات والدكتور يرى ذلك بعينه .

وزوجته المسكينة متخفرة صامتة صابرة تتمنى لو ساخت بها الارض لشدة خجلها . فاغمي عليها لكثرة ما كابدت من الاذى والعذاب . افتح اذنيك يا صاح فاستمع وعينيك وباصرتيك فانظر وتبصر واحكم . وبعد ان اكملوا شهوات قلوبهم اذروا راسيهما والقوهما في البئر واستحلوا ثيابهما وذهبهما وانقلبوا راجعين بالطفل وسلموه الى راوف القومندان وقالوا له اننا ادينا الفرض وقمنا بالخدمة اكثر مما تتمنى ويتمنى القائم مقام

هذا جزاء المعروف والاحسان . كذا فليكن الرجال والا فلا ما رايك ايها القارئ العزيز . ما كنت تصنع بهولاء الوحوش لو حصلوا في قبضتك . اهذه مكافأة من جدّ وتعب في خدمة الحكومة اهذه مجازاة من صرف زهرة عمره وخاطر بحياته حبًا لتمريض الجنود .. ولكن انّى للشوك ان ينبت وردًا . وانى للعليق ان يثمر عنباً . وانّى لمن يتنافس في ارتكاب الخنى والفواحش ويتفاخر بالشناعات وسفاسف الشؤون ان يتجافى عن مضاجع الاثام ويأنف من خسائس الشهوات البهيمية واللذات الحيوانية

على ان رجال الحكومة سبقوا فعرفوا للدكتور نعمان احسانه وقدروا له خدمته حق قدرها فاستاقوا والده يوسف واخاه سليماً وقتلوهما في ١٠ حزيران في اراضي شيخان ليزداد نشاط الابن في خدمة الجنود ويغار على صوالح الدولة

اما راوف القومندان فبعد ان صان فيليب نجل الدكتور زماناً عافته امراته والحت عليه ان يرسله الى اهله فاستدعى الشيخ موس ابن الخالوصي ودفعه اليه فجاء به الى ماردين وارسل في استدعاء

عمته جميله . ولم يسلمها اياه الا بعد ان قبض منها عشر ليرات . وما مرّ الشهر حتى استدعاها تكرارًا وقال اعطيني اربع ليرات لابعث في استحضار امه استيلا فدفعت له المبلغ لحسن ظنها . وفاتها انها هي وزوجها الكريم قد قضى صالح ابن الخالوصي امرهما بما فطر عليه من النذالة والتوحش . اما فيليب نجل الدكتور فما لبث عند عمته خمسة وعشرين يوماً حتى قضى نحبه .. لا غرو ان مخفي الفظائع مسطور . ومستور الفضائح يوم الحشر مشهور . والديان العدل لا يذر يومئذٍ سريرة الا ابداها . ولا يغادر صغيرة ولا كبيرة الا احصاها . وعاقب من اتاها

الفصل السابع عشر

حصار عينورد

عينورد قرية بطورعبدين قريبة من مديات مشيدة على رابية عالية جميع سكانها من السريان اليعاقبة لهم كنيسة كبيرة قديمة تشبه معقلًا حصيناً . واشتهر منها احنوخ ويشوع ويوحنا بن قوفر بطاركة طورعبدين . ورجالها متصفون بشدة العزيمة والتأفف من الدنية ولم نسمع ان احدا في بلاد ما بين النهرين عارض الاتراك وقاومهم سوى اهاليها واهالي ازخ

ذلك ان امام عينورد مسعود الامزيزخي الشجاع ضم اليه

---

(١) هذا بعد حادثة عينورد سار الى الغل واقام بها حولا كاملا وطاف قرى النصارى ينصح لهم ليتفقوا على مقاتلة عدوهم . وفي كانون ١٩١٨ كبسه عشائر دالينه وبيت حاجو في كفره وفتكوا به

الرجـال والشبان وبعث فيهم روح التحمس والنخوة واستنهضهم ليدافعوا عن نفوسهم ويقاتلوا الاتراك حتى آخر نفس وسار اذ ذاك الى عينورد قوم من نصـارى مذيات وباته وزاز وحبسناس وكفره وكفرزه حتى ناهزوا الستة الاف وافادوا مسعوداً عما ارتكبه اعداء النصارى في قراهم من المنكرات والجرائم فاتفقوا جميعاً على مناوشتهم القتال بـكل طاقتهم

اما قائم مقام مذيات فاوفد في طلب مشايخ القرى وبلغهم ان يجمعوا قواهم ويحشدوا رجالهم ويوزعوهم فرقتين فرقة يبعثون بها الى انحل وفرقة الى عينورد فيقاتلوا عامة المسيحيين ويستاصلوا اثرهم . غير ان عزيزا آغا رئيس البلدية قال للقائم مقام : لا يسعنا ان نحارب كلتا القريتين في آن واحد بل الاحوط ان نحمل باجمعنا على عينورد ونستفرغ كل قوة وحيلة في اتلاف سكانها ومتى تم لنا الفوز بهم انقلبنا الى انحل وافنينا اهاليها مثلهم . فاستطاب القائم مقام كلامه وعوّل الجميع عـلى رايه فاحتشد الحال في مذيات عشائر عرناس ومزيزخ والرمه ورجال احمد اغا وسالم آغا وسائر عشائر مـاردين حتى اربوا على الثلاثة عشر الفاً وخصص لهم القائم مقام المعايش عـلى كيس الحكومة ودفع لهم من البنادق شيئاً كثيراً فساروا باجمعهم في اثقالهم وعددهم ونسائهم الى عينورد وعلقوا يحـاربونهم حرباً عنيفة حتى استحوذوا على الرابية المطلة على القرية وكادوا يدوخونها الا ان الرصاص نقصهم فارسلوا في استحضار غـيره من دياربـكر وماردين فبعث اليهم رشيد وبدري بـكل ما طلبوا وزادا على ذلك انهما ارسلا اليهم صحبـة شوكت بك ابن محمد سعيد آغا مدفعاً

ضخماً يسع نصف رطل من البارود ورصاصة تزن اكثر من رطـل فواصلوا مقاتلة العينورديين بكل طاقتهم يؤملون اخـذ ارواحهم وامتـلاك ارزاقهم وخطف حريمهم . وظلوا كذلك عشرين يوماً قتل منهم في اثنائها زهاء مائتين وقتل من اهالي عينورد زهـاء ثلاثمائـة

واتفق ان عبد الكريم نصري سعيد (مقدسي نانو) السرياني التحصيلدار انهزم وقت المعركة الى عينورد مع حماته وقرينته وناصر ابنه فما لمحه الشيخ صدقي واصحابه المنافقون حتى اغاروا عليـه وفتكوا به وبامراته وحماته وابقوا على نجله فمضى به صدقي الى بيته ولبث عنده سنتين فاوفد السيد جبرائيل تبوني مطران السريان واشتراه وبعث به الى حلب عند عمه

اما اهالي عينورد فان مسعوداً امامهم افرز منهم طائفة لصب الرصاص فلم يذروا في بيوتهم نحاساً او رصاصاً الا ذوبوه وصاغوه وقاتلوا به اعداءهم . فاخبر الخصوم القـائم مقام فارسل في طلب شيخ دارا ورجاله ليوافوا وينجدوا الاكراد . ولما وصل هـذا الشيخ الى عينورد استدعى ثلاثـة من النصارى وبذل لهم كلمة الامان وحلف لهم بالطلاق انه لا يغدر بهم . ولما ساروا اليه قال لهم : اعلموا انكم بمقاومتكم الدولة تجلبون عليكم وعلى لفيف النصارى العطب والدمـار . فالاحرى بكم ان تسلمونا اسلحتكم ونحن نتعهد بحقن دمائكم . فقالوا قد طاب لنـا نصحك فذرنا نعود الى القرية وننصح للاهالي ليقوموا بمشورتك وينفـذوا امرك فسرحهم على هذا الشرط . غير ان النصارى بعـد ما استقدحوا

الاراء في ذلك نبذوا المشورة ظهرياً وقالوا اننا اذا دفعنا لهم السلاح افتعلوا بنا من الفظائع والشنائع اكثر مما افتعلوا بغيرنا ممن صدقهم وعليه فلئن نقتل فرادى خير لنا من ان نقتل جميعاً . فاستحسنوا الراي وظلوا يقاومون الاعداء.

اما الخصوم فركبهم شيطان الغضب والسخط فشددوا القتال وعاودوا الحصار مدة ثلاثين يوماً ليلاً ونهاراً حتى اعياهم الامر وضجروا : فاوفدوا الى متصرف ماردين يعلمونه فعمد سعادته الى الحيلة شأن الضعيف الغدور وارسل الى عينورد الراهب يشوع وحنا القس السريانيين اليعقوبيين ليقنعا الاهالي في التسليم والخضوع . ولكن العينورديين لم يكترثوا لنصحهما بل قالوا لهما : تيقنا انكما بمشورتكما هذه تعرضاننا الهلكة . فرجع السفيران بخفي حنين وظل الاكراد يحاصرون القرية

على ان اللسان قاصر عن وصف ما الم بالنصارى المحاصرين من الضيق والضنك والعذاب والجوع والمخاوف حتى ان عدداً غفيراً من النساء والاطفال زهقت ارواحهم لشديد رعبهم وظلت جثثهم على وجه الارض فانبعثت منها الروائح واعدت قسماً صالحاً من القاتلين وزد عليه ان الذخيرة نقصت جداً حتى ألجيء المسيحيون ان يذبحوا عامة غنمهم وبقرهم ويتقوتوا بها . اخيراً عجز العشائر وضجروا من المحاصرة وارسلوا الى النصارى يقولون ان اهالي انحل قد جاهروا بالاسلامية ونالوا العفو فاصنعوا مثلهم تخلصوا . ثم بعثوا اليهم وفداً يقول لهم كفاكم تقاتلون . اعتمدوا على من ترومون ليتوسط في الصلح واطفاء نيران الشاحن . فقال لهم النصارى ان

صح قولكم ابعثوا الشيخ فتح الله ابن الشيخ ابرهيم كبير عين كاف فنسر اليه بمكنونات صدرنا . ولما حضر الشيخ المذكور انحدر اليه ثلاثة من نخبة النصارى وقبلوا يده وفوضوا امورهم الى ذمته وامانته وقالوا له لا دليل لنا بعد الله سواك . واننا راضون بما تامر وتحتم . فامنهم الشيخ وقصد رجال الحكومة فاكدوا له انهم يزحزحون الاكراد عن قريتهم ولن يبسطوا اليد اليهم . وبعد ان تم القرار جمعوا الاسلحة كلها وسيروها الى الشيخ فكشف عنهم العشائر والعساكر معاً ونبههم وحذرهم ان لا يؤذوا نصرانياً ابداً واستغرقت مدة الحصار اثنين وخمسين يوماً . وظل النصارى في قريتهم لا يجسرون على الخروج عنها خيفة من اهالي عرناس وهلخ ومزيزخ الذين كانوا يترصدونهم ليفتكوا بهم . وطالما غدروا بهم وخانوهم وقتلوا منهم عدداً غفيراً من جملتهم القس بطرس حمال فانه بعد ما ظل في عينورد الى شتاء سنة ١٩١٧ اوفد الى السيد جبرائيل تبوني يطلب منه ما يلزم لاقامة الذبيحة الالهية فاشار عليه المطران بالشخوص الى ماردين فخاف . ولما كان يوماً راجعاً من مذيات الى عينورد ثار به الاعداء وقتلوه . فكان عدد القتلى غيلة بعد رفع الحصار عنهم اكثر من عددهم وقت المحاصرة . ذلك دليل مقنع وبرهان ساطع على ان الخائن يفعل غالباً بدهائه ما لا يفعله البطل الباسل بقوته

الفصل الثامن عشر

مذبحة كفرجوزه وباته

كان في كفرجوزه قوم من النصارى الكلدان يشتغلون في الفلاحة

وكان المسلمون يعزّونهم ويودونهم ويكلفونهم المشقات فيقومون بخدمهم . ولما صار ما صار بمذيات اوفد يوسف حسن شمدين آغا في طلب النصارى المنتمين اليه وبلغهم انه يدافع عنهم ويحميهم من هجمات خصومهم . غير انه لما رجع من عينوزد ركب راسه وانقلب عامرّ حبه خراباً فحشد ذكور النصارى واستاقهم حفاة عراة الى النهر القريب والقاهم فيه قاطبة . وكانوا في مسيرهم ينشدون الترانيم بالسريانية ويحمس بعضهم بعضاً لنيل اكليل الشهادة . وثابروا على ذلك حتى بلغوا النهر فاغرقهم الخصوم وانقلبوا راجعين . وكان ذووهم ينوحون ويبكون عليهم ويتالمون شديد الالم لفراقهم . اما يوسف اغا فلما رجع الى القرية غير خطته الاولى وسام بقية النصارى خسفاً وبالغ في القدح في اعراضهم واغتيابهم فنفروا منه وتسللوا الى مذيات وتركوا املاكهم وارزاقهم وجميع اثاثهم تراثاً له

ثم ان جميلاً ونجيباً ولدي اوصماني صاحبي باته جمعا اليهما اعلاج الاكراد ليفتكوا بنصارى قريتهما فحصروا نصفهم في كنيسة اليعاقبة والنصف الاخر في كنيسة السريان الكاثليك ثم كبسوا الكنيستين كلتيهما وانزلوا بالنصارى ضروب العذابات واخيراً كوموا الحطب واحرقوهم جميعاً ولم يفلت منهم سوى بعض اشخاص فروا الى عينورد . وكان للسريان الكاثليك في تلك القرية كاهنان وهما القس دنحو والقس ملكي فاصابهما ما اصاب سائر المسيحيين وراحا ينالان الجزاء المعدّ للابرياء الصالحين

الفصل التاسع عشر

مذبحة قلث وحصن كيفا

كان للسريان اليعاقبة في قلث كنيسة قديمة على اسم سمعان القناني الرسول ويوحنا الديلمي يخدمها خمسة كهنة . وكان للسريان الكاثليك كنيسة شيدت سنة ١٨٨١ يقوم بخدمتها القس بولس هيمو القلثي . وكان نصارى القرية عائشين في الرخاء والسعة لكل منهم اراض مخصبة ومواش كثيرة . ولما صدرت الاوامر بذبح المسيحيين استدعى رجال الحكومة مشايخ القرى القريبة ليبادروا الى نجدتهم ومشاركتهم في خيانتهم وخباثتهم فابتدر اليهم احمد اغا وسالم آغا من العوين ومحمدي شرو وغيرهم وشنوا الغارة على قلث فتلففوا عليها يحاولون سفك دماء نصاراها

فبادر النصارى كعادتهم الى الكنيسة فحمل عليهم العشائر وقتلوهم بلفيفهم واحرقوهم ثم انقلبوا الى البيوت وانكالوا على الباقين وذبحوهم عن آخرهم واستحوذوا بعد ذلك على الاموال والامتعة والمواشي والاراضي وتصرفوا بها كما افتعلوا في كل محل وطئته اقدامهم النجسة

اما حصن كيفا وكان نصاراها نحو خمسمائة نسمة من يعاقبة وارمن وبرتستان فان الفتن ثارت بها مذ ٥ حزيران ١٩١٥ ذلك ان قائمقام مذيات ارسل الى احمد منير مدير الحصن في استدعاء الاكراد الانذال ليفتكوا بجميع المسيحيين . فسارع امين ابن الحاج عبدالله شيخ الشكاكيتا في عدة من الاعلاج ولما وصلوا الى الحصن انضم اليهم

مائة من الجند فاوفدوا الى الاهالي ان يفتحوا لهم باب القلعة فابى المسلمون فالحفوا في الطلب فنزل مدير الحصن ليقف على السبب فكاشفه الشيخ بما اضمر وصرح له بأمر القائم مقام فاخذ المدير بيد الشيخ ودخلا كلاهما الى الحصن واقاما جماعة من العسكر على الباب يحرجان الخروج على النصارى

ولما توسطا القلعة طفقا يستدعيان الجنود والاكراد ويوزعانهم على بيوت المسيحيين ويشيران اليهم ان يفتكوا بهم . فانهزم بعض الشبان فادركهم الأكراد والقوا بهم من ذلك العلو الشاهق الى اسفل حتى ترضضت اعضاؤهم وفاظوا . ثم حملوا على بيت فبيت وقتلوا كل مسيحي وجدوه ونهبوا الامتعة والاموال والقوا القبض على جرجس كبير البرتستان وعلى زاخي امام اليعاقبة وزجوهما في السجن . وواصل الجنود والاكراد يذبحون ويعذبون مدة اربع ساعات لا يستحرمون شيئاً البتة . وتعرّض غير واحد من النصارى بالصخور فانهزموا الى كفرجوزه فمديات . اما النساء المتبقيات فالقين بانفسهن الى دجلة وغرقن

واخيراً قصد المدير وامين اغا السجن ووثبا بجرجس وزاخي المشار اليهما وبنصرانيين اخرين وهبراهم بألسيوف وطعناهم بالخناجر حتى تضرجت اجسامهم بدمائهم وفاضت ارواحهم . ولم يبق في الحصن نصراني واحد . ودخلت الاموال وسائر الامتعة والاثاث في حوزة الامامين المزبورين طبقاً القاعدة المطردة

الفصل العشرون

مذبحة الصور

كان يسكن الصور جماعة من النصارى الارمن والسريان (المشرق ١٦ : ٥٧٢) يبلغ عددهم ثلاثمائة نسمة . وعام ١٩١٢ سار اليهم السيد اغناطيوس مالويان ووعدهم بارسال كاهن اليهم لقضاء فروضهم الدينية . وفي اواخر حزيران ١٩١٥ اجتمع بيكواتها (شيوخها) المشهورون وراسلوا ماردين فيما يجب ان يفعلوا بالنصارى المتوطنين عندهم . فكان الجواب اطلاق الحرية لاقتحام كل محذور ومحظور وارتكاب كل جريمة . فالقوا القبض على جميع الرجال والشبان وحبسوهم وعذبوهم ثم استاقوهم وقتلوهم . وبعد اسابيع ثلاثة استدعوا الاربعة الرجال المتبقين في السجن وقالوا ليوسف ابن المعلم الياس كبيرهم اننا معولون على ترحيلكم الى ماردين وما خرجوا بهم عن الصور الا مسافة قصيرة حتى فتكوا بهم وانقلبوا وطفقوا يطوفون البيوت ويقولون للنساء ادفعن لنا الذهب والفضة والحلي فنسلمكن اياها في ماردين . لان الحكومة اوصلت اليها رجالكن وقضت بان تلحقن بهم . فاستلبوا ما استلبوا وقبضوا على النساء والاطفال واستاقوهن الى الثكنة واغلقوا الابواب واوفدوا الاعلاج فنقلوا ما فيها من غال ورخيص وكثير وقليل الى دار الحكومة . وظلت النسوة والاطفال والرضعان في ذلك الموضع يومين كاملين يبست السنتهم من العطش وضمرت بطونهم من الجوع وانهكت قواهم من البكاء والعويل . ثم حضر حسن بك المختار ومصطو عنفيص

وحمدو واسمعيل الدفا وغيرهم يقولون تجهزن . فاخرجوهن اثنتين
اثنتين والاطفال بيدهن وعلى صدرهن والاجنة في رحمهن واستاقوهن
بعنف وشراسة وهن حافيات خائرات القوى متضورات من الجوع
والعطش والبكاء . ولما وصلن الى الخربة ثم الجنود يطلقون
الرصاص عليهن ويقضبونهن ويذبحونهن بحد السيف . فقتلوا طائفة
واستاقوا البقية الى باقيسه وعروهن بالمرة وطفقوا يفتشون في الثياب
على الاصفر والابيض . ولا يمكن لقلمنا ان يسطر ما افتعله اذ
ذاك هولاء الاوباش الخالعو العذار من الفواحش والمنكرات بالنساء
المكشفات

وما استراحت النسوان في باقيسه حتى اضطرهن الوحوش البرابرة
الى مواصلة المسير وتفضلوا عليهن بما يسترهن ولما شارفوا رشمل وقباله
اقبل رجال كلتا القريتين واختطفوا من احبوا من البنين والبنات
فاخذت النساء يتوجعن ويسجعن كحمامات خطف البزاة افراخهن .
وبعد هذا تعاوروهن بالخناجر والسيوف والهراوى حتى وصلوا بهن
الى راس الميدان شرقي ماردين. فسار الاهالي واختطفوا من الاولاد
الصغار من استحلوا واشتهوا . واضطرهن الجنود الى استئناف المسير
حالاً الى حرين تحت الليل . ثم صرن الى نصيبين ومنها الى خراب
كورت . فاطلق لهن حينئذ الجنود الحرية التامة المطلقة الكاملة
ليسترحن من اتعاب الطريق . ولا يفتك ايها القارئ النجيب انهن
مذ خروجهن من بيوتهن لم يذقن شيئاً ابدا

وعند الصباح تعجلوا اليهن بالمسير فاقبل اكراد تلك القرى
وطفقوا يأخذون واحدة فواحدة يعرونها ويضربونها على ام راسها

ويلقونها في الجب. واخر الكل ضربوا مريم بنت عبد المسيح قلايلي
على يافوخها وزجوها في البئر لتموت على مهلها

واتفق ان خضر بن الصوفي مراد الادخي مرّ بتلك البئر فسمع
انين المرة فقال لها اريد ان انقذك . قالت ان اخرجتني من البئر
قتلتني . فاقسم لها بحظه وحظ دولته انه لن يقتلها . فقالت لو
كان للدولة بخت لما أمرت بايصال الاذى الى الحريم واعراضهن
عندها كعرض السلطان . فاعجب خضراً كلامها وامنها والقى اليها
منديلاً تستتر به ثم دلى الحبل وانتشلها وسار بها الى بيته واستحضر
طبيباً عالجها وابراها. واخيراً عادت الى ماردين ونزلت في بيت عمها
عبد الاحد شكرو

الفصل الحادي والعشرون

مذبحة نصيبين ودارا

نصيبين بلدة شهيرة بقدمها كثيرة الحدائق والبساتين يمد فيها
نهر الهرماس وكانت حدود الدولتين الرومية والفرسية ثم اصبحت
عاصمة ديار ربيعة واخيراً املكها المسلمون في القرن السابع (المشرق
١٦ : ٨٤٩) وابتنى الاهالي على انقاضها الدور باللبن الا كنيسة
مار يعقوب القديمة ودير فبرونيا والسكنة وكان فيها قوم من اليهود
وجماعة من النصارى الكلدان والارمن والسريان واليعاقبة قريب
الاربعمائة نسمة وكان القس حنا شوحا (هنا ص ١٤٠) الكلداني
يقوم بشوونهم الروحية

وسنة ١٩١٦ وما بعدها شغلها الالمان وابتنوا في جبلها الشمالي

دورًا واسعة حصينة وسموا المحل La quatrième Division اي مركز الفرقة الرابعة حشدوا فيه الذخائر والعدد واوصلوا الخط الحديدي الى البلد . واليك ما جرى للمسيحيين اثناء النازلة

يوم الجمعة ٤ حزيران شخص رزو بن نجمه الى دار جرجي ابرط يقول ان مدعي العموم يطالبك فسار من ساعته فاوثقه وسيره صباح الاحد ٦ حزيران الى ماردين فانضم الى المسيحيين وسيق وقتل معهم في ١٠ حزيران

اما عبد الكريم وحبيب ابرط فانهزما الى الدعدوشية عند الشيخ ابرهيم وكان شيخ طي ضيفاً عنده فاكد لهما انه يحقن دمهما ودم اسرتهما. ويوم الاحد قبض الاعداء على رجال النصارى بنصيبين وركب عبدالله بك الجركسي وعبد العزيز الداشي الى القرى المجاورة وكبسوا المسيحيين واستاقوهم الى نصيبين واستاقوا معهم عبد الكريم وسجنوهم وكان يعقوب زركو امام الكلدان يؤكد لهم انهم في تلك الليلة عينها يرحلون الى الدار الباقية

وعند نصف الليل اقبل رضى راس الضباط واستدعى عبد الكريم ونخبة من المسيحيين وفتشهم واعادهم الى السجن الا عبد الكريم فانه وجد عنده رسالة مضى بها حالاً الى مدعي العموم فاستدعاه وقال له ما معنى قول جرجي اخيك في الرسالة « قل لتومان القنام لياخذ حمل الاجاص الى سنجار . ما مراده بالاجاص. وكيف تراسلون سنجار وسنجار خصم للدولة . افدني الحقيقة والا قتلتك شر قتلة » قال عبد الكريم هوذا الاجاص بعد في البيت فابعث من يستحقه . فامره المدعي بالعودة الى السجن

واتفق ان فريدة والدته قصدت الحاج ابرهيم القنطرجي رئيس البلدية تستوضحه عن سبب حبس المسيحيين ولاسيما ولديها . فقال لها اعلمي ان ولديك هما من الجمعية الفداوية . فلا بدّ من سفك دمهما غدا العصر . اما مالويان (السيد اغناطيوس) الذي تتباهون به فقد قضي امره وقتل . فرجعت الام والدموع على خديها وعوامل الحزن آخذة منها اشد ماخذ ولكنها لم تخبر ولديها بما نقل لها الحاج ابرهيم

ويوم الاثنين ١٤ حزيران استدعى المأمور جميع السريان اليعاقبة المحبوسين وقال لهم ان الدولة انعمت عليكم بالعفو فاذهبوا الى دوركم وحافظوا على عهود الامانة . وعند العصر اقبل الى السجن محمود شوكت ابن عمّ ممدوح الاثيم وشاكر بك الحاج كوزه والحاج اسعد جلبي ورفيق افندي وقدور بك وتم قرارهم على اطلاق المسجونين اجمع فانهزم عبد الكريم وشقيقه باسيل الى سنجار فتقفاهما احمد اليوسف في اربعة عشر من الخيالة فلم يدركوهما

ويوم الثلاثا ١٥ حزيران احاط الجنود تكرارا بدور الارمن والسريان والكلدان والقوا القبض على جميع الرجال والشبان وزجوهم في السجن واستاقوهم نصف الليل الى خراب كورث وذبحوهم

ثم نظمت الحكومة لجنة للفتك بارواح عامة المسيحيين المستوطنين في القرى المجاورة وخصت رئاسة اللجنة برفيق بن نظام الدين وقدور بك وسليمان مجر . فارسلوا رسلًا الى المشايخ في قتل المسيحيين . من ذلك ان ابرهيم اغا خزنه اخرج النصارى من قريته وذبحهم قاطبة . واحمد اليوسف صاحب السيحه جمع نصارى القرى الملاصقة

لقريته وذبحهم بيده . ومحمد العباس آغا الدوكر استعان بقـدور بك ملازم العسكر الخمسيني فاوفد اليه العسكر فقتلوا جميع النصارى . وعلي العيسى صاحب الحلوة فتك بالنصارى المتوطنين عنده بمشورة قدور بك واستولى على اموالهم وكان فيها كثير من الاغنياء كبيت ايليو البردا وغيره

ثم سار قدور في اصحابه وضمَّ اليه احمد العباس وابرهيم الخليل وعمر الاوسي اغا الدكشورية فقتلوا نصارى الحركه وكركي شامو والخويتله ولم يذروا منهم احداً . غير ان سليمان العباس اطلق الحرية لنصارى كرشيران قريته فانهزموا ولم يقتل منهم احداً . اما مسيحيو السروجية وكريبيا وغيرهما فتفرقوا في البراري شذر مذر

وفي ٢٨ حزيران مضى قدور الى دار فريدة ابرط وقـال لها هلمي كنائنك الى داري وحسبـك ان تقولي اسلمتُ ولو بالفم فتخلصي انت وهن فانكرت عليه مشورته . ومساء ذلك النهار القي القبض على جميع النسوة والصبيان وسيقوا الى بيعة مار يعقوب فحمل عليهم الجنود فافرزوا الفتيان والفتيات ومضوا بهم الى بيت ججكي النجار واستاقوا النساء الى خراب كورت فـذبحوهن واستحوذوا على ثيابهن وانقلبوا فاستاقوا الصغار الى البرية واوثقوهم بالحبال واستركضوا الدواب فدرستهم بحوافرها وهرستهم . وخلصوا من شرهم وخيانتهم . ولولا ذلك لتعطلت الاشغال وانقلبت الاحوال وصال الاستبداد وطال . ما أمهركم ايها اللئام بل ما اغلظ قلوبكم واجناها . نافقوا وتمردوا ولا يعزب عن فكركم ان كل نفس ستوفى ما اقترفت

ولا يسعنا الصمت عن وصف الافراح التي شملت قلوب المسيحيات لـدى سوقهن . فانهن كنَّ يترنمن باهازيج الطرب واناشيد الفرح كانهن سائرات الى احفـل الاعراس ليتمتعن بمشاهدة حبيب قلبهن المفدى حمل الله الذبيح لاجلهن

ثم اجتمع ابرهيم بشيره واخوه مخلوف ومحمود شوكت واسمعيل جاويش وخشوا في دور المسيحيين ونقلوا الاموال والامتعة الى بيوتهم واقتسموها ما بينهم . وسبى غير واحد منهم جملة من البنـات والبنين واضطروهم ان يُسلموا

ولا بد لنا من ذكر كلمة في شان محمد شيخ طي فانه اوصى من ينتمي اليه ان يحقن دم كل نصراني يلوذ به . وبعث عـدداً من المسيحيين الى صديقـه الحميم حمو شرو صاحب سنجار . ولم يستحسن ان ياخذ او يلمس شيئاً من اسلاب الارمن المظلومين . قيل ان اعداء الدين المسيحي عرضوا عليه يوماً خاتماً ثميناً جداً ليشتريـه فاستفسرهم عن صاحبه فقالوا . نصراني . فقال لا يهون على قلبي ان اتمتع بما لم يتمتع به صاحبه الشرعي . فمسحوا صخرة جبينهم الصلبة من عرق الخجـل ? وهو الذي قصد قدور بك وقسره ان يسلمه ولدين لاسرة ابرط كانا لديه فاردفهما على حصانه واحضرهما الى سنجـار ودفعهما الى عميهما . لا غرو ان كل نفس تجزى بما تسعى . فالشقي في الدنيا سعيد في الاخرى والسعيد ههنا شقي هناك

اما دارا فلم يكن بها من النصارى اثناء المذابح سوى مائـة وخمسين نسمة من الارمن الكاثليك كانوا يسكنون في الجهـة الغربية وكان لهم كنيسة وكاهن يتعاطى خدمة نفوسهم . ودارا

هذه تضرب الامثال باسرابها الضيقة الطويلة وابارها الكثيرة ومغاورها الواسعة التي ملأها الخصوم في ايامنا المشؤومة من جثث القتلى النصارى

وفي ١٠ حزيران بادر الى ارمن دارا جيرانهم واخرجوهم عن دورهم بعنف واوثقوهم جميعاً بالحبال ومضوا بهم الى بئر قريبة فانزلوا بهم الوان العذابات وقتلوهم ولم يفلت منهم سوى رجلين انهزما الى البكيره عريانين وهما يوسف بن جرجس سمه وجرجس الذي اشتغل اثناء الحرب في حفر الترب العسكر الموتى

الفصل الثاني والعشرون

حوادث دير الزعفران

دير الزعفران اقدم دير للسريان اليعاقبة وهو كرسي بطاركتهم منذ القرن الثاني عشر فيه كنيسة جميلة على شكل صليب طولها ١٧ متراً وعرضها ١٢ متراً وفي الطابق الاعلى كنيسة الكرمي شيدت سنة ١٦٩٦ ـ ١٦٩٩ وحول مذبحها كتابة سطرنجيلية تتضمن ايات الفصل ١٦ من انجيل متى التي تشير الى رئاسة بطرس زعيم الرسل . وكان هذا الدير حصناً منيعاً للروم في غابر الزمان تحيط به من الجهة الشمالية صوامع الرهبان كصومعة سيدة الناطف ومار يعقوب ومار عزازنيل وغيرها

ولما استاق الخصوم قافلة نصارى ماردين الاولى في ١٠ حزيران بادر الى الدير سريان قلعة المراة وبنابيل وكان عددهم نيفاً وسبعمائة معهم شيء من البواريد والبنادق ليتحصنوا به ويدفعوا عنهم غارات

الاكراد . وفي اوائل تموز سار الاعداء الى باقرقوه واستدعوا خليلاً غزاله وارادوه على حشد الداشيه واكراد العمريان ورشمل وقباله وغيرها ليكبسوا الدير ويفتكوا بمن فيه . فتعجلوا اليه في دوابهم ونسائهم والح عليهم خليل غزاله واحمد مرزو ونوري البدليسي راس العسكر الحفظة ليفتحوا الابواب فابوا. وقال للنصارى عبد الاحد (بجوني) يونو البنابيلي المشهور من فتح الباب ضربناه بالخناجر واخرجناه. فامتثل الجميع مشورته وتبجنت الشجاعة في افئدتهم وظلوا يقاومون . اخيراً توسل اليهم احمد مرزو ان يجروه الى سطح الدير بالحبال فلم يرضوا فحلف لهم بالله العظيم وجمع الى اليمين بالله يميناً بالطلاق انه لن يؤذيهم فما صدقوا . فاحتدم غيظاً وانقلب فاثار الاكراد والعشائر فجعلوا يطلقون البواريد على النصارى من صباح الاحد ٤ تموز حتى المساء فلم يقتلوا احداً البتة . على ان النصارى المحاصرين ما اكتفوا باطلاق ما عندهم من الرصاص بل جمعوا الحجار وقذفوها عليهم ودحروهم ولم يبق منهم حول الدير سوى القليلين ترقبوا الفرصة زمناً للهجوم فلم يفوزوا بخبيث نياتهم فنكصوا على اعقابهم مأيوسين

اما نوري البدليسي فنفر عليهم وجعل مذ ذاك يستنزف منهم الذهب والفضة شهراً فشهراً حتى اثرى. وجاراه في طمعه عبد الاحد دلاله فاستحل حصة من الذهب ودفع الحصة الكبرى الى نوري بل افضى به اللوم والطمع الى ان اسر الى نوري باسماء الفارين من التجند فكان يزعجهم ويقتنص منهم الذهب والفضة .وظل النصارى محشورين في الدير مدة ثلاثة اشهر حتى اذا كان تشرين رجع البنابلية

الى قريتهم وتفرّق اهالي القلعة في سنجار والخابور وعلى هذا النمط استنجى الدير ومن فيه من دهاء الخصوم وهجماتهم

واتفق ان خمسة رجال من ارمن بيران انهزموا الى الدير من وجه الاكراد فثار بهم الجنود وافرزوهم واستاقوهم الى جنوبي الدير وفتكوا بهم

الفصل الثالث والعشرون

مذبحة قلعة المراة

قلعة المراة قرية مشهورة شرقي ماردين بينها وبين دير الزعفران اهلها كلهم نصارى من السريان المنفصلين والسريان الكاثاليك لكلتا الطائفتين كنيسة على اسم جرجس الشهيد · وللبرتستان فيها مصلى ومدرسة

ويوم الجمعة ١١ حزيران ١٩١٥ وافت الى ماردين نسوة من القلعة وافدن مطران السريان والوجهاء ان الاكراد متحمضون ليتوثبوا على القرية ويفتكوا بمن بها فاشاروا عليهن بالانهزام مع ذويهن الى الدير فحملوا امتعتهم وذخائرهم وقصدوا الدير · فشعر بأمرهم ايسمعيل بن علي محمودي الداشي واحمد مرزو وابنه فتتبعوهم وطمنوهم لكن النصارى ابوا الا الرحيل

وصباح الاحد ١٣ حزيران خرج منهم اربعة وخمسون وقصدوا القلعة في استحضار ما تبقى في بيوتهم وسار معهم خاو وعبدي العسكريان ليحافظاهم · غير انها اثارا الداشية فادركوهم عند الشرفة وصقعوا رووسهم بالسيوف واعملوا فيهم المدى وذبحوهم

ولم يفلت منهم الا جرجس بن عبي وشمعون بن ملكي يعقوب فانهزما الى ماردين فلقيهما عند الفردوس ابن الشيخ محمد علي فارادهما على الدخول الى البستان فابيا وواصلا السير فقصد جرجس مستشفى البرتستان فعالجه الدكتور تام وابراه

ولما بلغ خبر مذبحتهم اهالي القرية دفعت الحماسة قوماً منهم فشخصوا الى المقتلة وملأوا الجثث في الاعدال وحملوها الى الكنيسة ليلحدوها فاطلق عليهم الداشية الرصاص لكن الله انجاهم جميعاً فدفنوا القتلى وعادوا الى الدير · وبعد هذا سار منهم زهاء ستين رجلًا ليقطفوا عنباً من كروم القرية فشد عليهم الداشية وفتكوا بثمانية منهم واحرقوا يوسف حنو وفرّ الباقون الى الدير

ويوم الخميس ٢٤ حزيران قحم نوري البدليسي والقى القبض على اربعمائة وخمسين شخصاً واخرجهم قسرا من الدير لياتي بهم الى البلد ويضيفهم الى العسكر العملة وكان ما بينهم خمسة عشر ارمنياً انهزموا من بيران فنحوهم عن البقية وذبحوهم عند مقطع خاجو والقوا جثثهم في المغارة وساروا بالسريان الى ماردين وضموهم الى عملة الاعبئة · لكنهم ما تاخروا ان تسربوا الى الدير واحداً فواحداً بعد ان رشوا المامور كمألوف العادة · وعند وصولهم الى الدير فرض نوري البدليسي على كل منهم مجيديين في الشهر وظلوا كذلك حتى رفع عنهم الحصار : غير ان الامراض المعدية فشت في معظمهم حتى انه في يومنا لم يبق من اهالي القلعة سوى ثلاثين بيتاً نصفهم في القرية والنصف الاخر في الخابور

الفصل الرابع والعشرون

مذبحة معصرتا وبافاوا وبنابيل

معصرتا قرية الى الشمال الشرقي كان يسكنها زهاء ثمانمائة نسمة من السريان المنفصلين دابهم فلاحة الكروم ونسج الاعبئة . وفي اواسط حزيران ١٩١٥ فرّ منهم ثلاثة رجال الى بنابيل فدير الزعفران فاخبروا المسيحيين بما جرى لهم قالوا : قصد شيخ معصرتا واسمه حسين بكرو وجهاء ماردين وشاورهم في امر نصارى قريته فبانوه ان يستاصلهم قاطبة فانقلب الى القرية راكباً راسه واستدعى من فوره النصارى ليبلغهم على قوله كلمة الامان والعفو . ولما شخصوا الى داره الفوها مكتظة باجلاف الاكراد . وما وطئوا الساحة الخارجية حتى ثاروا بهم واوثقوهم واستاقوا نساءهم وجميع عيالهم معهم الى الابار القريبة وافحشوا في ضربهم وذبحوهم بلفيفهم والقوا جثثهم في تلك الابار . ولاذ ملكي يعقوب ويعقوب واخوه بمغارة مجاورة وظلوا فيها ثلاثة ايام كالنزوعي الروح ثم انهزموا الى بنابيل فدير الزعفران . وابتز الاكراد امتعتهم واموالهم واستحلوا ارزاقهم واراضيهم واستراحوا

ولما بلغ الخبر نصارى بافاوا رجفت ابدانهم وحاروا في امرهم وظلوا يومين على تلك الصورة فشد عليهم حسين شيخ القرية في رجاله وكبسوهم في دورهم وتعاوروهم بالمدى والشفار والخناجر حتى افنوهم واستلبوا اموالهم وتركوا بيوتهم بلقعاً . وافلت منهم ثلاثة رجال ايضاً فروا الى بنابيل واخبروا النصارى بما صار

اما البنابلية (ص ٥٧) فلما بلغتهم اخبار تلك الفواجع ايقنوا انهم عما قليل يساهمون اصحابهم المسيحيين فحملوا بنادقهم وتفرقوا في البساتين والكروم وارسلوا نساءهم واطفالهم الى دير الزعفران . وفي سلخ حزيران اغار عليهم اكراد العمريان المحمودكية واهالي رشمل في اولادهم ونسائهم ودوابهم وتسلقوا قلة الجبل المطل على القرية يحاولون النزول للقتل والسلب . فقصد النصارى الجنديين اللذين عندهم والحوا عليهما ان يصدرا الامر الى الاكراد لينكشفوا عن القرية او يبعثا الى ماردين في استحضار العسكر ليقاتلوهم او يضطروهم الى مغادرة القرية فقصد احدهما البلد وظل الاكراد على قمة الجبل يجددون النظر ويستفرصون الفرص للهبوط الى القرية وقتل المسيحيين واستلابهم

ولما استبطأ النصارى رجوع السفير بعثوا نخبة منهم الى خليل غزاله كبير العمريان صديقهم ليوافي الى نجدتهم فسار خليل في ستين رجلا واوصى اخاه احمد ان يلحقهم في رجاله ايضاً . فاستقبلهم النصارى بترحاب شاكرين لهم اخلاصهم واعدوا لهم الاطعمة والفواكه فوعدوهم انهم يقاتلون الاعداء ولا يغادرون القرية الا بعد ان يهزموهم . وعند غروب ذلك اليوم عاد السفير الى القرية في ١٨ جندياً وبوقوا واستدعوا النصارى ووعدوهم انهم يزيحون عنهم الاكراد غير ان البنابلية لم يصدقوا كلام العسكر فظلوا في بساتينهم

وعند الفجر انحدر الاكراد الى القرية واحتفوا بها كالجراد في حميرهم وجحاشهم ونسائهم واولادهم وكان عددهم فوق العشرة آلاف بينهم قوم من الداشية وغيرهم . فاطلقوا اولاً البنادق ليختبروا

قوة النصارى . امـا البنابلية فلزموا السكوت يقولون : ان قاوم العسكر اعداءهم لاذوا بالصمت والا دافعوا بكل طاقتهم . غير ان العسكر ما تأخروا ان اتفقوا مع الاعلاج وطافوا البيوت معهم للاختلاس والسلب . فنهض البنابلية وشدوا على الاعداء واطلقوا عليهم الرصاص فقتلوا ثلاثة رجال وامراتين وهزموهم الى البساتين. فاستدعى العسكر اذ ذاك خليلا غزاله وقالوا له « قاتلك الله علام تحامي عن النصارى الكفار . او تجهل ان الحكومة ترمي الى قتلهم فذرهم وشأنهم وارجع الى قريتك » اما خليل فلم يكترث التوبيخ بل ظلّ على العهود والمواثيق

فعمد الجنود الى الحيلة واختلقوا مضبطة كتبوها هم ووقعوها بامضاء خضر جلبي وعبد الرزاق شهتنا وشوكت بك ومحمد علي ابن الحاج علي وكان فحواها : « ان من دافع عن النصارى قتل وسلبت امواله . ومن سعى في قتلهم فاز بالحظوة لدى الحكومة » وسيروا المضبطة الى خليل (وهي عنده الى اليوم) فلما اطلع على مضمونها قال اعلموا يا هولاء ان البنابلية ابطال شجعان لا يهابون احدا . فالاجدر ان نتحيل عليهم ونستدعيهم الى الكنيسة ونحصرهم ونفتك بهم . فاعجبهم كلامه وارسلوا اليهم متو الداشي يقول لهم ان صديقكم خليلًا يدعوكم ليوقفكم على مضمرات قلبه ويلقنكم الوسائل لتدافعوا عن نفوسكم وتدحروا الاعداء . غير ان البنابلية المحنكين قالوا له ارجع وقل لخليل ليحضر هو الينا لاننا عارفون حق المعرفة ان في حضورنا اليه هلاكنا . فشخص اليهم خليل صديقهم في رجاله وسار معه عشرون من مشايخ الاكراد. وما

لحهم البنابلية حتى تعرّش قوم منهم باشجار المشمش وجعلوا يقطفون الثمار ويطعمونهم . وفرّ منهم قوم الى دير الزعفران فاستدعاهم خليل وقال علامَ تنهزمون اما تصدقوني . ثم قلب لهم ظهر المجن واندفع يشتمهم ويلعنهم ويستنهض الاكراد ليقتلوهم . فانحدر البنابلية عندئذ من الاشجار واستجاروا الله ولاذوا بالهزيمة . غير ان الشيخ قبض على نعمه بن حنا خاتوني واخذ بندقيته وضربه بها ففرّ من بين يديه ولحق اصحابه الى دير الزعفران والاكراد والعشائر يركضون في اثرهم ويطلقون عليهم الرصاص فقتلوا منهم اثني عشر رجلًا فقط . وكان الفتيان النصارى يرعون الغنم والبقر في ضواحي القرية فقصد نحوهم خليل وزملاؤه وارادوهم على سوق المواشي الى الكرمية فتكالبوا عليهم وذبحوهم كافة ما عدا فارساً بن شمو فانه اركن الى الفرار واطلع الاه على ما صار

ولما صار البنابلية الى الدير الفوا نساءهم خارجاً والجنود يحرجون عليهن الدخول ويبالغون في تعذيبهن . فسخط البنابلية على العسكر وتسلقوا الحيطان وخطفوا المفتاح ففتحوا الابواب وادخلوهن وهن ينحن ويعولن . فامتعض نوري البدليسي وقبض على يوسف بروكي وابرهيم يوسفي وجرجس برو واوثقهم وسيرهم الى البلد فبعثوهم الى دياربكر وقتلوهم . فخاف سائر البنابلية وكانوا سبعين رجلًا وخرجوا من الدير واختفوا في سرب قريب مدة ثلاثة ايام ثم عادوا الى قريتهم واحتصنوا بالمغاور والكهوف . وكانوا يبحثون ليلًا عن الحشائش والبقول ويقتاتون بها ثم صعدوا الى الحبيس وارسلوا يستحضرون الطحين من الدير وهم ينتظرون الفرج . واتفق لحسن

بيزي التخومي ان مرّ هنـاك فسمع صوتهم وبادر الى البساتين واستدعى الاعداء ليقتلوهم فسارعوا الى الحبيس وسارع معهم قوم من الاكراد يقولون . قد حصلتم في حوزتنا . فقال لهم البنابلية . اضربونا ولا تقصروا فنحن قد جعلنا دمنا في كفنا . قال الاكراد: اسلموا تخلصوا . قال البنابلية . انترك عيسى ونتبع محمداً يا حمقى كلا . اننا نحيا ونموت على دين المسيح . فقـد قتلتم كثيرين من اخوتنا النصارى فمثلنـا مثلهم . ولما راى النصارى كثرتهم ايقنوا بقرب المنون وانحدروا عنـد نصف الليل من الحبيس وتوغلوا في القرية فاطلق عليهم الخصوم البنادق كالمطر فلم يصيبوا احداً . ولما شخصوا الى الدير سالوا المطران الياس هلوله ان يفتح لهم البـاب فقصد نوري البدليسي ودفع له خمساً وثلاثين ليرة جمعها من البنابلية على ان يأذن لهم في الدخول فتسلقوا السطح ومكثوا في الدير نحو ثلاثة اشهر يدفع كل منهم لنوري راتباً شهرياً

ولمـا قلع نوري ونصب مكانه ابرهيم الحاكي عرض عليهم الاسلامية فابوا . فالح فلم يفلح فاستحضر عشرين عسكرياً فاوثقوا البنابلية جميعاً واخرجوهم في حـال يرثى لها . وكتب ابرهيم المزبور الى فرحان الداشي بقلعة الراة يقول « استعجل في استحضار عدد كاف ليفتكوا بالبنابلية قاطبة » لكنه تعذر عليه ذلك لفوت الفرصة فوصلوا الى ماردين وفرقتهم الحكومة في القرى ليحصدوا الغلال . وكان الحفظة اذا انهى الحصادون شغلهم تكالبوا عليهم وقتلوهم مجـازاة لتعبهم . فقتلوا من قتلوا وانهزم الباقون الى قريتهم ولاذوا بالجبال وما زالوا كذلك حتى انطفأت نيران الحرب

الفصل الخامس والعشرون

مذبحة المنصورية

المنصورية (ص ٥٨) اقرب قرية من بلد ماردين تشمل اربعمائة بيت نصفهم نصارى ونصفهم داشية وهم من السريان المنفصلين والسريان الكاثليكيين لكلتا الطائفتين كنيسة باسم اسيا الطيب . وصناعة اهلها الحياكة واشهر من هـذه القرية بيلاطس بطريرك اليعاقبة † ١٥٩٧ وعبد الغني اخوه

وكان الداشية اثناء الحرب يحدّدون النظر الى جيرانهم ليوقعوا بهم وافضت بهم اللآمة الى ان بلغوا اسماءهم الى الحكومة فقبضوا على كثير منهم وبعثوهم الى ساحات الوغى واضطروا الباقـين الى نادية الغرامات الشتى . وما هو اعظم من ذلك كله ان اليعاقبـة عينهم افادوا الحكومة عن شبان السريان الكاثليك الذين كانوا يعاقبـة سابقاً فجعلت تبحث عنهم وتلحف في طلبهم التجند كما حدث الامر للقس يوسف رزقو المنصوري[1] تلميذ دير الشرفة بلبنان

(١) كان القس يوسف يعقوبي النحلة وانضم الى الكنيسة الكاثليكية منـذ نعومة اظفاره فثار عليه اهل وطنه وبلغوا رجال الحكومة فقبضوا عليه وحبسوه يومين كاملين ثم اجتمعوا وقرّروا ان يلزم مذهب آبائه حتى يبلغ رشده وبعثوه الى بطريرك اليعاقبة عبدالله سطوف في ثمانية جنود فاضطره البطريرك ان يسير الى الزعفران ويزاول الشغل في المطبعة فثابر على ذلك سبع سنوات وهو يراسل الرؤساء الكاثليكيين سرّاً فشعر بذلـك المطران جرجس وامر وكيل الدير القس بطرس فضربه ضربات شتى حتى كسر اصابعه . وما تأخر صليبا ان فرّ من الزعفران وقصد السيد جبرائيل تبوني مطران السريان الكاثليك فاوفده الى دير

فاضطر الاب المذكور ان يغادر ديره ويطوف اديرة السريان الموارنة حتى انتهت الحرب الطاحنة . وحدث مثل ذلك لرفيقه الخورفسقفس بشاره حداد السرياني فعضده الشيخ يوسف حبيش النبيل وكفّ عنه تعدي الخصوم

وليلة الاربعا ١٦ حزيران ثار الداشية على نصارى المنصورية وقصدوا اولاً بيادرهم ونشبوا يطلقون الرصاص ثم انقلبوا الى دار دليّ بن خليلو كبيرهم وصاروا يصيحون باعلى اصواتهم فانهزم اغلب النصارى الى الكنيسة ولزم البقية بيوتهم خائفين

اما جيجانو سيراني فتظاهر بانه يدافع عنهم وتسلق سطح الكنيسة كأنه يحرج على الداشية اصحابه الدخول اليها . ولكنه ما مرّ القليل حتى انحدر وفتح الباب على وجه الامانة فكبس الداشية عامة المسيحيين وتعجلوا اليهم بالضرب والرفس والصفع وقتلوا اكثر من اربعين رجلا وامراة واحدة ثم اوقدوا المصابيح واستدعوا توما اخا القس عبد الاحد ويجدو موسى وذهبوا بهما الى بيت الاخرس ليستخرجوا المطامير والكنوز فبحثوا بحثاً شديداً ولم يعثروا على شيء . فاحتدموا سخطاً والبسوا ذينك الرجلين ثوبين جديدين وقلبوا عليهما زيت البترول فاحرقوهما . وانهزمت اذ ذاك خزمه امراة عبد الاحد اخرس الى بيت اوصمانيا الداشي فتال الداشية وفتشوها واخذوا منها ثلاثمائة ليرة وقتلوها . وكان زوجها وابنها واقفين على سطح الكنيسة فما سمعا بقتلها حتى الفيا

الشرفة ذقرا العلوم الكهنوتية وحذقها حتى اذا كان ٥ ايار ١٩١٨ ارتسم كاهنا باسم يوسف وهو بماردين يشتغل في فلاحة كرم الرب بغيرة ونشاط

بنفسهما الى اسفل وتهورا فتعاورهما الداشية بالسيوف وحزوا راسيهما وقتلوهما ايضاً

واستمرت النساء على سطح الكنيسة وانهزم الرجال . فتشاغل الداشية بنقل الاموال والامتعة والاثاث الى بيوتهم حتى بقي من الليل ثلثه فبلغ الخبر وكيل المتصرف بماردين فامر الجنود بالمسير الى القرية عاجلاً . ولما شارفوها دقوا الابواق فانهزم الداشية الى بيوتهم في الغنائم والاموال. ولما وصل الجنود قالوا للداشية علانية «الرماد في راسكم علامَ تركتم منهم بقية . الاذا لم تستاصلوا شافتهم بالمرّة»

وصباح الخميس ١٧ حزيران بادر نصارى القرية باجمعهم الى المدينة وحلوا في كنيسة اليعاقبة نافضين يدهم من اموالهم واملاكهم وظلوا عشرة ايام حائرين . فسار مطرانهم الى المتصرف وساله الافراج عنهم . فاوفد سبعة جند يقولون : هلموا معنا الى القرية واستحضروا ما تحتاجون اليه . وبذلوا لهم الامان وسرّجوا لهم الاحاديث وقالوا انهم يصونونهم في الذهاب والاياب . فاجمع زهاء سبعين امراة على المضي . وحملت كل منهن شيئاً مما تبقى في بيتها من الزاد ورجعن . وعند النخرية بادر الداشية واحاطوا بهن واستاقوهن في اثقالهن الى مغارة القيصرية وفتكوا بارواحهن واحرقوا اجسادهن ولم يفلت منهن سوى امراتين احداهما خرساء فرّت الى المدينة عريانة على اخر رمق واخبرت بالحادثة

غير ان الحكومة ارادتهم على المضي تكراراً وعاهدتهم بالايمان المغلظة انها تحقن دماءهم وتسعى في دفع الخصوم عنهم . فذهب ثانية نحو مائة امراة ومكثن ثم شهرا . وذات ليلة ثار الداشية

بهن وساقوهن الى موضع يُعرف بجب القرقوعة على طريق بسانس فذبحوهن قاطبة والقوا جثثهن في البئر . واوثقوا ايليا باكاني مع كلب واستاقوه على تلك الصورة الى بساتين الزنار يسخرون منه ويطعنون عليه وعلى دينه حتى اذا كان الغد عادوا به الى تلك البئر وقالوا اه اعوِ نفلتك . فجعل ينبح ويعوي وهم يضحكون وقد يبس لسانه من الجوع والعطش ثم قتلوه والقوه في البئر فوق القتلى

ومذ ذاك لم يتجرأ احد على الذهاب الى المنصورية . غير ان امراتين ذهبتا يوماً واستحضرتا شيئاً من الذهب المطمور في بيتيهما ولما وصلتا الى الفخرية انقض عليهما الداشية فاخذوا ما استحضرتا وقتلوهما وقتلوا معهما صبية وعروهن ولففوا سراويلهن في اعناقهن وانصرفوا

ولم يذر الخصوم شيئاً في الكنيسة من الامتعة والاموال . ولما جاء المهاجرون الى ماردين سيرت الحكومة قسماً منهم الى القرية فقلعوا الاخشاب واحرقوها وباعوها . وقوضوا المساكن ودكوها ولم يعفوا الا على الكنيسة فقط

واليك اسماء اشهر مشايخ الداشية الذين استباحوا وانتهكوا واستحلوا ما حرّم الله تعالى : حسين بلالو وخليل وعثمان اخواه . ودلي برو خلياو . وحسن اوصماني . والحاج بدرو . والحاج بنيه وبيت شيخي . وبيت عجو . وحمي الحاج علي . وخلو مصطوكي وعلي الجبلي . وفرحو عرفي وغيرهم

وما زال اهالي المنصورية مستوطنين في ماردين يشتغلون الحياكة بنشاط وجدّ . وقد تحسنت احوالهم وكثرت اموالهم وتوفرت بواعث نجاحهم

الفصل السادس والعشرون

مذبحة القصور

القصور او الكولية (ص ٥٥) قرية في جنوبي ماردين بيوتها مبنية باللبن ما عدا كنيسة السريان اليعاقبة التي جددوها سنة ١٧٢٧ وكنيسة السريان الكاثليك التي انشئت سنة ١٨٧٢ بمساعي السيد ليون القاصد الرسولي . ولما حضر اليها الالمان عام ١٩١٧ نقلوا حجارة كنيسة الكاثليك وابتنوا بها بيوتاً لمثواهم واليك ما جرى لنصاراها في هذه الاونة

في ٢ تموز قدم من تل ارمن الى القصور عشائر الملية والدقورية والميرسنية والكيكية والخلجه والعربانية والمشكينية والسوركية والديركاوية والدنبلية وانضمّ اليهم اكراد جبل عنص والفرس وشيخان وعرب البغاره والخراجنه وحرب يتقدمهم الداشية والمشكورية والتفوا بها عند الظهيرة ونشبوا يطلقون الرصاص فهلع النصارى جداً وقصدوا الحفظة وكانوا مائة وعشرين وسألوهم ان يكفوهم شرهم فحملوا عليهم وكشفوهم عن القرية

وعند الغروب اوفد الاكراد الى محمد بك الملي ويوسف بن نوري البدليسي رئيسي العسكر يستأذنونهما في الهجوم . فامر محمد بك عسكره ان يحيطوا بالقرية ويحرجوا الخروج على النصارى . ولما جنّ الليل ارسلوا خليل بن بلالو وسعدو بن كاصو وخليلاً عبدالو وجاجان بك العرباني الى محمد بك يقولون مُر النصارى ان يدفعوا ثلاثمائة ليرة ذهبية نبتعد عنهم . فقصد محمد ورجاله دار ايليا جبور

كنعو كبير السريان وصرحوا له بنية العشائر فاستمهلهم الى الصباح فابوا وخرجوا من داره ساخطين

وفي الساعة الثامنة ليلا بوّق البوق طبقاً للمؤامرة فشد العشائر على القرية فارسل محمد بك الى ايليا يشير عليه ان يحشد النصارى في بيته فيأتي هو واصحابه ويزحزحون الاكراد عنهم . غير ان الاكراد ما دخلوا القرية حتى انضم اليهم العسكر الخونة وصاروا يتواثبون في الدور ويتراكضون على السطوح ويذبحون اخيراً كبسوا دار ايليا كنعو وكانت على رحبها غاصة بجماهير المسيحيين داخلاً وخارجاً فانغمس فيهم اولئك الاذدال وجعلوا يذبحونهم بحد السيوف والشفار حتى رويت الارض من الدماء وامست عبارة عن حوض ماء. ثم ارادوا الذين كانوا داخلا على الخروج فانكروا فصاروا الى السطح وعالجوه حتى خرّ السقف عليهم فقذفوا زيت البترول واحرقوهم فانتشرت الروائح وتعجج الجو من الدخان

وبعد هذا راحوا يجرون جثث القتلى الى الابار ويقطعونها ويلقونها بها . واكد لنا الكثيرون ان شيوخ الاكراد ولاسيما الذين سرحوا لحيتهم وركشوها كانوا ينتصبون على فم البئر وفي يديهم الخبيثة الشفرة او المدية فيقولون البسملة على كل فرد ويذبحونه ويهبطونه الى رضام البئر . وكانت نساؤهم الفاجرات يتعجلن اليهم ويقلن لهم فسحوا لنا لنخضر نحن ايضاً يدنا بدماء اعدائنا فكانوا يأذنون لهن لئلا يبقى بقلبهن . وبلغنا ان رجلا وحشياً من القوس قبض على عدة اطفال وصعد بهم الى السطح وثم يقبض على قدمي واحد فواحد ويجيله كالمقلاع ويلقي به الى اسفل ويقول

للطفل اذهب ارعَ السخلان وللطفلة اذهبي انطري القثأة وفتك على هذا المنوال بخمسين طفلا وطفلة . وهذا غاية التوحش والقسوة

يا رباه افتح عينك وانظر . اسمع ايها السيد اصغ واصنع . لا تبطيء (دانيال ٩) . وأحصي عدد القتلى في دار ايليا كنعو فقط فكان اكثر من ألفي نسمة . ولم يبق اليوم من نصارى القصور سوى مائتي نسمة فروا الى تومكه فحقن خليلو صاحبها دماءهم ودرّ لهم الارزاق وصانهم لديه حتى هدئت الثورة فسرحهم الى بيوتهم واذخر له اسماً صالحاً استوجب اعطر الشكر والثناء

الفصل السابع والعشرون

مذبحة تل ارمن

عرفت ايها القارئ العزيز ان نيران العدوان قدحت زنادها في قرية تل ارمن ومنها اندرأ الحريق وانتشر لان درويش مديرها هو اول من نجم في الشر . ففيها كتبت تلك المضبطة الشيطانية في تدمير الارمن واهلاكهم[1] . ومنها أرسلت الكتب الى الولاية وغيرها في محق النصارى وسحقهم . فيها لفقت الشكاوى على المسيحيين واستدعي سركيس الى ديوان ابليس ليمضي الضبطة . في تل ارمن أعد اعوان هامان الاجاجي الخشبة ليعلقوا عليها مردكاي الامين وسائر الارمن المسيحيين والكاثليكيين . ولم يقرّ قرارهم حتى ادركوا اوطارهم فقلبوا القرية ظهراً لبطن ودمروها وجعلوا عاليها سافلها

(١) كتبت المضبطة في محل اسعد الخاومي ووقع عليها درويش المدير وعبد الرحمن الفواس ونجيم مدير بنك الزراعة ومحمود عبدالو

ولا يفتك ايها الحبيب ان نصارى تلّ ارمن المنيفين على الستة الاف نسمة كانوا كاثليكيين قحين يغالون في دينهم ويتنافسون في الخلال الحسنة . ولما راوا مطرانهم الشهم وقسانهم النبلاء وجماعة ماردين قد سيقوا وقتلوا ايقنوا انهم سيصيرون الى ما صاروا

وفي ١١ حزيران سارت اليها شرذمة عسكر من ماردين واستحضروا القس انطون والقس ميناس والوجهاء وصفدوهم وساقوهم الى شيخان وقتلوهم . وبعد اسبوع اي يوم الجمعة ١٨ حزيران القوا القبض على عشرة اخرين منهم غزّو سيدوب وميخائيل مكي وجرجس جدعان وساقوهم الى قلعة ماردين فظلوا ثمانية ايام والخصوم يتغامزون على قتلهم . لكنهم راوا ان يعيدوهم الى قريتهم ليتمكنوا بتلك الذريعة من اكتساحهم عن بكرة ابيهم . وما مضى الاسبوع حتى انتقى المدير منهم سبعين شخصاً وفوّض اليهم ان يقوموا بخدمة الغادي والرائح من الجند وفي ٢٨ حزيران استاقوهم الى دار الحكومة . فانهزم بولس بن اوسي القس فاطلقوا عليه الرصاص وقتلوه . ثم قبضوا على النصارى من السن العاشرة الى السبعين واستاقوهم الى الكنيسة . واستدعوا رعاة الاغنام فسرحوا السام وأبقوا الدمراني واستحوذوا على جميع المواشي والخيل وجمعوها في محلّ واحد . واحتشد من بغتة اكراد القرى المجاورة وانضموا الى العسكر ينتظرون اوامر درويش

اما النساء فصرن الى المدير يستفسرن عن الامر فتجاهل وقال لا خوف عليكن ولا على رجالكن والخالكن فعادت النسوة الى بيوتهن خائفات مذعورات. وكان جرجس بن حنا المنصوراتي لائذاً

بكوخ الدجاج فشعر به الجند واستاقوه الى البيعة . اما درويش فارسل جماعة من العسكر الى الابراهيمية فقبضوا على ستين من اليعاقبة والارمن وعلى ابرهيم السرياني واحضروهم الى كنيسة تل ارمن فسالوا القس عن مذهبه فقال سرياني قديم . فبذلوا له كلمة الامان وصرفوه وصرفوا معه جماعته وجرجس المنصوراتي المذكور ولما وصلوا الى الابراهيمية شن عليهم الغارة جميع الاكراد يتقدمهم شيخي شهتنا ودرويش المدير واعملوا فيهم البنادق والخناجر حتى قتلوهم قاطبة . وحزوا هامة القس ابرهيم وجعلوا يلعبون بها لعبهم بجمجمة احقر الحيوانات واستاقوا النساء والاطفال الى تلّ ارمن وحشروهم في الكنيسة . ثم انتقوا مائة رجل واوثقوهم اربعة اربعة ورجموا غزو سيدوب قبل الجميع وقتلوه وساروا بالبقية في اول تموز على طريق التصور وفتكوا بهم وعادوا الى الكنيسة ومعهم عبدالله جلبي ابن الحاج كرمو في رجاله وشركائه وطفقوا يعرون المسيحيين والمسيحيات ويقطعون رؤوسهم ويذبحونهم بالسيوف والمدى والخناجر حتى تعصفرت اراضي الكنيسة وحيطانها بالدماء

وعند ذاك حضن جرجس المنصوراتي طفله وقصد الموقد لينجو به من الضرب والقتل . فاقبل كردي يحاول ضربه فتاوت. فعراه من ثيابه وهو صامت وانصرف يظنه قد فاظ. اما النصارى الذين لم يصبهم الضرب فتكردسوا فوق بعضهم اربعة اربعة وخمسة خمسة وعلا ضجيجهم وصراخهم حتى كادت الكنيسة تتصدع وتتشقق . وركب جرجس المذكور خمسة اشخاص الواحد فوق الاخر فظل تحت الجميع صامتاً ممدوداً على الدماء وابنه الى صدره وروحه

تتردد الى حنجرته . وبادرت فتاة الى موضعه فهجم عليها الانذال وعرضوا عليها الاسلام فابت فضربوها وهي على فخذه وقتلوها

وما انتهى الاوباش من الذبحة وغادروا الكنيسة حتى دخلت ثلاث كرديات وقلن لرجالهن أعطونا السكاكين والخناجر لنخضر يدنا . شلت تلك اليد . ويبس ذاك اللسان . . وجعلن يفحصن الجثث ويضربن من شئن حتى انتهين الى القتلى الكومين فوق جرجس فقلبنهم وضربن الذكور في فخذه فلم يتحرك فانصرفن

وعند الغروب اقبل الجنود الى الكنيسة وغيظهم في جوفهم وقالوا من كان حياً فلينهض ولا يخف . لان الحكومة امرت ان لا تستغرق المذبحة اكثر من ثلاث ساعات . فنهض اربعة من الجرحى وتبعوهم فخرجوا بهم خارجاً وقتلوهم . اما النساء فذهبوا بهن الى حيث شاءوا . وما اكتفوا بالقتل بل اخرجوا الجثث واحرقوها جميعاً والقوها في البئر . وجمعوا الاطفال والرضعان في ارض البيدر ودرسوهم كالقمح كلهم وقتلوهم وخلصوا من تعذيبهم ؟ واستحيوا زهاء سبعين امراة وفتاة استاقوهن الى ميدان الشكنة وعروهن وركبوا منهن الفواحش علانيةً دون حياء وتركوهن هكذا اسبوعاً كاملًا حتى انقلبت صورتهن ثم شرعوا يقتلون من ارادوا ويسبون من اشتهوا[1] وكان منصور سحار مختفياً فمل الاقامه في مخبائه وتردى كالاكراد وقصد البلد فالفى في طريقه قوماً من العسكر الحميدي فاستفسروه عن اهله وفصله ومقامه فانكر حتى وصل الى بيته

(١) أكد لنا غير واحد ان درويش المدير اغتصب خانم بنت يعقوب القس حفيد البطريرك بوغوص وركب منها الفاحشة طول الليل ولما اصبح امر بقتلها

فلم يعرفه اهله لتبدل سحنة وجهه ولبث مختفياً الى آب ثم انهزم الى ستجار

اما جرجس المنصوراتي فظل في الكنيسة ثلاثة ايام صابرًا على احكام الله ثم اخذ عمته وامراة اخيه وجرجس متفونه وقصدوا قرية الكولية عراة حفاة . فاستوضحهم الجند عن شانهم فقالوا : ان الحكومة رحلتنا من ويرانشهر فثار بنا الاكراد وعرونا . ولبث جرجس واصحابه زماناً في الكولية يستعطون ثم شخصوا الى ماردين

كذا جرت مذبحة تل ارمن وبختامها نختم اخبار الذابح والفظائع . . فهلا اصاب دعاة الشر والقتلة الظلمة ما اصاب هامان الخائن فيسكن الغضب وتعود الطمانينة . قال ميخا النبي (ص٢) « ويل للذين يفكرون في الاثم ويخترعون الشر في مضاجعهم ثم في نور الصباح يصنعونه . . ويشتهون حقولا فيغتصبونها وبيوتاً فيحوزونها ويظلمون الرجل وبيته والانسان وميراثه »

وأُحصي عدد القتلى في ولاية دياربكر السوداء فكان ستمائة وعشرين الفاً فقط . ولا ندري هل شبع الظلمة ام لا . ولكن لا يشهد عنهم ما قيل

تنام عيناك والمظلوم منتبه   يدعو عليك وعين الله لم تنم

وما من عبد ظلم فشخص ببصره الى السماء الا قال له الله عز وعلا : لبيك عبدي حقاً لانصرنك ولو بعد حين

الفصل الثامن والعشرون

شذرات

حدثنا يوسف بولس كعيب قال : قصدت دار بطاني مساء الجمعة ٤ حزيران فاذا بهم يبكون ويصلون وقد حضر فرنسيس احدهم من دياربكر يقص لهم ما حدث بها من الفظائع . وبعد الغروب بساعتين ودعتهم وما وصلت الى قدام دار جنانجي حتى اكتنفني عشرة جنود من جملتهم ابن قاعو وجعلوا يضربوني وساقوني هكذا الى دير الراهبات الفرنسيسيات واوثقوا قدمي وضربوني اربعمائة ضربة ثم اراقوا عليّ الماء واستحضر سعيد الجرموكي خلّا غسل جراحي وسقاني خمراً واطعمني حتى تراجعت قوتي وامر اثنين فحملاني الى بيتي

وصباح الاثنين ٧ حزيران مررت بكنيسة مار يوسف فتكالب علي الجنود تكراراً وطفقوا يضربوني باعواد البندقيات فدفعتُ لهم وثيقتي فتركوني وزحفت كالسلحفاة الى بيتي وما عتم ان انضمت الى العملة رفاقي ثم قصدت دار الاميركان ولبثت بها الى اواسط ايلول فشعر بي الجنود واستاقوني مع ٢٢٧ شخصاً نصرانياً الى قرى دياربكر لنحصد الاغلال . ولما وصلنا الى دياربكر اهبطونا الى السجن وعرونا ولم يدعوا علينا سوى ما يسترنا وانزلوا واحداً فواحداً الى اعماق السجن وأرونا زنابيل ممتلئة من اسنان المسيحيين وآذانهم واصابعهم وانوفهم الخ (هنا ص ٢١٩) فاقشعر جسمنا وملكتنا الرعبة . ثم وزعونا في القرى فسرت انا ورزق‌الله كروم وفرنسيس

دبس وابرهيم الكلداني ورجلان اخران الى تولة قرية عبد المسيح صباغ وفي اواسط تشرين الاول شاهدنا قريب عشرة الاف نسمة من ارمن طرابزون وما والاها فذبحهم الاعداء كلهم بشفرة اصحاب التبغ. وارتكبوا المنكرات من الحريم ثم ضحوا بهن وسلتوا امعاءهن طمعاً في الذهب . وحضر بعد ذلك قافلة ثانية من موش وكيغي كانوا اكثر من ستّ عشرة نسمة ذبحوهم كالسابقين بالسكاكين

وواصلنا العمل حتى شهر كانون الاول فساقونا الى خانكه ثم الى ميافرقين فأمر القائم مقام ان يحمل كل منا على ظهره ستين اقة قمحاً الى سعرد فسرنا كالدواب ما بين الثلوج ومات منا في الطريق ستة وعشرون رجلًا . ولما وصلنا الى سعرد لذتُ وحدي بالهزيمة . حتى وافى الالمان فنزلت واشتغلت مع العملة الى انتهاء الحرب

واخبرنا جرجس عبد المسيح حنجو قال : عوّلت بعد استياق اهلي على الهرب الى سنجار فتلفعت بازار النساء. وقصدت بيت الحدوب فلمحني فارس بن حمو اليونس عند الجامع الكبير وقبض عليّ واستغاث برفاقه ليسارعوا اليه فالقيت الازار والحذاء وفررت فادركني الجند فقلت قتلي ههنا خيرٌ من مجيئي معكم فاقسموا لي بالطلاق الثلاث انهم لا يقتلوني وساروا بي هكذا الى مقام البوليس وعند الليل وافى ممدوح وبدري وهرون وغيرهم من السيطرين واستنطقوني والحوا عليّ ان اعرفهم بمكان سعيد اخي فتجاهلت فطلبوا مني مائة ليرة فوعدتهم فانقلبوا راجعين وعند نصف الليل استحضروا شاباً ارمنياً قتلوه تجاهي والقوه في البئر ولما اصبحوا اطلقوني فدفعت لهم خمساً وعشرين ليرة ووعدتهم بدفع الباقي

وانهزمت ليلا ولحقت بالجراكسة وسرت معهم الى السفح فسنجار .
اما اخي داود فغدر به المشكوية بعد ما استضافوه زمناً ومضوا به
الى السجن فقضى فيه شهراً ثم قتل

وروى عبد المسيح سفر السرياني قال : سرت في شباط ١٩١٦
الى عبد الامام في ثمانية عملة ورايت جثث نساء القافلة الاولى (ص
٢٨٣) ثم عدت الى دكوك وشاهدت الجركس منهمكين في
الفواحش مشتغلين ببيع الذهب والفضة . ومرّ اذ ذاك حلمي بك
متصرف ماردين الشهم فعرفني واستخبرني عما جرى بماردين فافدته
فحملني كتاباً الى السيد جبرائيل تبوني يعرب فيه عن شديد حزنه
ويعزّي المطران . ثم صرت الى نصيبين فابصرت شاباً نحيف البنية
مكسور الساق يرعى الاعشاب فاستوضحته عن امره فقال: ساقوني
من اطنه مع الف نسمة حتى وصلنا الى هنا فقتلوا الجميع وضربوني
رصاصتين وقطعوا ساقي وجمعوا الجثث وكوموها في هذا البيت
الكبير (واشار اليّ به) فدخلته فاذا هو ممتلئ من الجثث كله .
فرثيت لحال الفتى وودعته وسرت الى دير قابه وكنت كلما خطوت
ورايت جثثاً على طريقي دفنتها انا واصحابي

وحدثنا ميخائيل صلبو السرياني قال : كنت اشتغل السروج
في الخيم عند لحف سنجار حتى صيف ١٩١٦ وشاهدت قوافل شتى
اقبلت من بلاد ارمينية بحال يرثى لها طرحهم الانذال في قرى
الوردية والجدالة وابجرا والهول وعين غزال وبلد والعمو وطريق
البديع الخ . فسرت في ثلاثة من اليزيدية ليلا الى قرية ام الذيبان
فهزمنا ١٧ رجلاً و١٢ طفلا و٢٦ امراة وثلاثة حمير وجئنا بهم

الى حمو شرو شيخ سنجار الكريم فاثنى علينا ونشطنا لنستحضر
غيرهم . وذهبت يوماً لزيارة محمد بيو الوصلي فقال لي ابشرك
يا صاح اني خطفت ثلاث نسوة ارمنيات لي ولاخوي وهن من
اجمل النساء . فصبرت النفس تلك الليلة ثم قصدت اصحابي اليزيدية
واحضرت ٢٢ شخصاً وسرنا ليلا الى محل محمد فاستدعينا واحدة
واحدة وجئنا بالثلاث الى شيخ سنجار فشكر لنا. وكانت الواحدة
استير قرينة مامور التبغ باطنه وكان اسم الثانية اوسيا والثالثة
خاتون . فانضمت الثلاث الى لفيف المسيحيين ولبثن بسنجار. ووافى
بعد ذاك من الاحسجا اكثر من ثلاثة الاف نسمة يحيط بهم عسكر
دير الزور والشراكسة فاغار عليهم العرب وخطفوا منهم ستة عشر
شخصاً دفعوا بدل كل شخص فرساً شقراء وعشرين ليرة وكان ذلك
بحضوري . واقبل عند ذاك خضر الكسوما ويداه وثيابه مخضبة
بالدماء وقال للجنود « والله اني قتلت اليوم اثنتين وستين امراة
وسلخت ثلاث نسوة بسيفي وعثرتُ ببطونهن على اكثر من ثلاثين
ليرة وانتقيت ابنتين جميلتين تقولان انهما من ازمير ومضيت بهما الى
بيتي وليلة دخولي بالواحدة رايت في ضفيرتها حجر الماس وسبع
عشرة ليرة وعلبة فضية فيها اثنتان وسبعون قطعة ثمينة صورت فيها
ضروب الحيوانات كالسمكة والعقرب والسبع والفيل والغنم » الخ
ولما ذهبت اليه يوماً اراني ذلك كله واراني ايضاً صليباً ذهبياً
مرصعاً بحجارة كريمة

وحدثنا رزق‌الله بطرس جرما قال : كنت اشتغل اثناء المذابح
عند الالمان في محطة ابي فجا قرب راس العين وفي اب ١٩١٥ هجم

علي وعلى ستة نصارى بينهم سليم صوفيه عشرون من جنود الترك والجركس يتقدمهم اصلان بك واخوه وعربان والملا عيدو النعامي وما سرنا الا القليل حتى عرونا واستعجلونا على المسير الى الجرجب الكبير فاستاذناهم في الشرب فاحضر الملا طساً ملاها ماء ومزجه بالتبغ وقال لنا اشربوا منه تاسياً بمسيحكم الذي شرب المرّ على قوالكم . فجرع كل منا جرعة ونحن كذلك اذا بخيال يستركض جواده وبيده ورقة تنطق بصدور العفو عنا . فلما اطلع عليها اصلان حرّج على البقية الحاق الضرر بنا . فاعترضوا عليه فقال لهم « اعلموا يا هولاء اننا لا نضع خطية هولاء في رقبتنا لانهم لم يوذونا ابداً فلو تعدوا على حرمنا او قتلوا احداً من عشيرتنا او نهبوا دورنا لحقّ لنا ان نثأر منهم . والا فكيف يجوز لنا ان نرتكب هذا الاثم . والله لولا اوامر الحكومة لما عذبنا وقتلنا النصارى ابداً . فالحكومة هي المسؤولة عن سفك الدماء . اما نحن فمأمورون لا غير » قال هذا وعاد بالستة الى راس العين فشكروا اله واستأنفوا عملهم

والحوادث عندنا في هذا الصدد كثيرة جداً جداً اكتفينا بما اوردناه منها ليطلع القراء على ما حاق ببقية المسيحيين من الاذى والجفاء.



الجزء الخامس*

توابع المذابح ولواحق النكبات وخاتمتها

من سنة ١٩١٦ — ١٩١٨

الفصل الاول

سُوق المزايدة

او طفت يا هذا في بلاد ما بين النهرين بعد المذابح والسبي لشاهدت خصوم المسيحيين يبحثون عن حمالين ونقالين ويذهبون بهم الى البيوت والمخازن والدكاكين ويحملونهم الامتعة والبضائع الى محل عمومي او الى احدى الكنائس كي يتبايعوا عليها ويكثروا اثمانها على قولهم في صندوق الحكومة الخميص . على انا في هذا الجزء الاخير لا نقصد البحث الا عما جرى في ماردين بعد الفظائع

والذابح فنقول

بعد ما فتك الاعداء بارواح النصارى وطحنهم البلى بكلكله حاولوا الاستيلاء على الاموال والاملاك فمهدوا الامر الى طائفة من المنصبين كحجابي افندي ونجيم بن امين افندي وعبد الكريم افندي يراسهم حسين المفتي ومحمد علي جلبي وصادق بن سري افندي فانتقوا جماعة من العسكر النصارى فيهم نعمه بن ياسو السخله اليعقوبي لينقلوا البضائع والامتعة والاقمشة والطنافس والافرشة والاخشاب والاسرّة الى مخزن واحد او الى كنيستي الارمن ودار جانجي ليتبايعوا عليها فزاولوا العمل بجد ونشاط قبل حضور المهاجرين المسلمين من ارمينيه . وكان اذا عثر احد المأمورين على حرزة تلفف بها واخذها الى بيته لئلا يشعر به البقية فيغصبوه اياها

وبادئ بدء استحلوا دفاتر التجار وسنداتهم وباعوها باسعار متهاودة تشاطروها على السكت. ثم شمروا للبيع والشراء اولاً على سطح سوق الصياغ وكان الدلالون ولاسيما اسمعيل امامهم قد كشفوا الاذيال واخذوا ينادون باعلى اصواتهم والسلع بيدهم يتزايد الحضور في ثمنها ويدفعون القيمة الى مامور الصندوق من دون ان يتصفحوا البضاعة او يقلبوها. فاشتروا الكثير باليسير والغالي بالرخيص كتاجر استعجله السفر فباع امواله جزافاً لئلا تفوته الفرص . وبعد ما باعوا وابتاعوا البضائع قصدوا دار جانجي وتبايعوا على ما سبقوا فحشدوا بها من الاسلاب . ثم ازدحموا على الكنيستين المشار اليها وتبايعوا على الاواني المقدسة والحلل الثمينة والقناديل والثريات والخوذ والصوالجة والصلبان الذهبية والفضية وغير ذلك مما تقادم عهده وندر

وجوده وكثر ثمنه . واننا ليعرونا الحزن والاسف معاً لدى وقوفنا على ما افتعله صاغة اليعاقبة الذين كسروا تلك الاواني وباعوها في البلاد بارباح طيبة تاثثوا بها واثروا . ولا ندري كيف طاوعتهم قلوبهم او سمحت لهم ضمائرهم ان يتصرفوا بما خص بيت الله وهم يعلمون انه سحت حرام . لعمري انهم ملتزمون بردها كلها الى اصحابها والا فخطيئتهم غير مغفورة طبقاً للنص : لا تغفر الذنوب ما لم يرد المسلوب اما الكتب الارمنية والكتب القديمة فحصلت في يد العطارين ونفعتهم لصر السلع وهلم جرّاً. ولما فرغوا من البيع راحوا يفتكرون في مكيدة اخرى يكيدونها ولقمة ثانية يطعمونها

الفصل الثاني

الدفائن والمطامير

نفس بعض النصارى باموالهم وذهبهم فدفنوها بقلب الارض لئلا يستبد بها احد غيرهم . وفاتهم ان الخصوم احكم وامهر منهم فانهم اصطفوا قوماً يدّعون بصناعة الرمل ومعرفة المطامير والكنوز كالقس الياس دولباني وابرهيم المسقوف واسكندر تنورجي السريان اليعاقبة ورفعة ابن الشيخ افندي مختار حي النصارى وكلفوهم ان يطوفوا في بيوت التجار ويحفروها وينبشوا ما بها كدار جاندري وسوسي (جنانجي) ومعمار باشي وعبدالله وكجو وبطاني وتاجر وخوجا الخ فاستخرجوا منها الدفائن وسلموها الى اولي الامر فرضخوا لهم شيئاً وصرفوهم

وتفرد بدري المتصرف بدار اسكندر ادم ونبش ثلاث مطامير

كانت احداها عبارة عن علبة كبيرة ممتلئة من الملاعق والسكاكين والاواني الفضية . والثانية كانت صندوقة تضمنت حلياً ثمينة من قلائد وسلاسل وشنوف وخواتم واساور ذهبية مما قلت زنته وكثرت قيمته . وكانت الثالثة عبارة عن طنافس وبضائع وصوف وسمن وحبوب وهلمّ جرّاً . وما اكتفى بدري بنبش ذلك كله بل غلب على ظنه ان في الدار كنوزاً اخرى فاوفد في استحضار زيزف ابنة اسكندر ادم وقال للجندي قل لها ان امراة المتصرف تدعوكِ . فقامت زيزف من فراش الحمى وسارت فاقبلت امراة بدري في نفر أرناوطي تقدح شرارات السخط من بين عينيه وابتدا يقول : افيدينا عن المخابىء والا اهلكناك واهلكنا بنتي اخيك اللتين استخلصتها من الذبح . فخافت زيزف وقالت له . امّني اطلعك على المطامير . ثم قامت وقام معها الارناوطي وامراة بدري الى الحجرة العالية وقالت له افتح الكوة ففتحها فاذا هي خاوية خالية فبهتت المراة وملكتها الرعبة . فقال لها الارناوطي هل حسبتنا سخرية فكتمت منا الحقيقة اقري بالمطامير والا قتلتك . فقالت له زيزف لعلي سهوت لان الدوار آخذ براسي فامهلني لاستريح . ثم نزلوا بها الى مراح الدواب فقالت استدعوا يوسف حاوا لانه يعرف المحل فاستحضروه على العجلة فدخل وقال من فوره هذا مكان المطمورة وقد نبشت فسخطوا عليه وضربوه ضربات شتى وشدخوا راسه وكسروا كتفه واخرجوه . ولبثت زيزف وحدها تبكي على ما اصابها وكان ذووها واقفين على الباب ينتظرون النتيجة فاشفقت عليها حرُم رئيس المحاسبة وتوسطن في امرها لدى امراة بدري فقالت لها اذهبي وارجعي اليّ

في الغد . فخرجت زيزف الى بيتها وبلغت السيد جبرائيل تبوني امرها فعالج المسئلة وانقذها من دهاء عدوها الغدار

واقتص آثار بدري احمد بك ابن الحاج سليمان اغا معاون القومسير فاحتال على حبو الخوجا امراة جرجس حندوله واختلس منها ١٨ ليرة واضطرها ان تستخرج من دار ابيها مطمورتين بلغت قيمتهما نيفاً وستين ليرة . وقس عليه

الفصل الثالث

قدوم المهاجرين وسكناهم في دور المسيحيين

بعد ذبح رجال المسيحيين ونسائهم اذاع الخصم انه عما قليل يوافي الى ماردين رجال مسلمون بتر الارمن اعضاءهم وقطعوا ارجلهم واكتافهم وفقأوا عيونهم وشوهوا جباههم . وستاتي معهم نسوتهم وثديهن مسلوخة ووجوههن مخدوشة ممسوخة . غير انه لما جاء المهاجرون جاؤوا بافرشتهم وامتعتهم وكانت اكياسهم ممتلئة من الاصفر والابيض وصدور نسوتهم ملطوخة بالحلي والجواهر . ولم نرَ واحداً او واحدة منهم على ما وصف الخراصون الكذبة . فاستقبلوا بالترحاب وأُسكنوا في دور الارمن واثقين من نفوسهم انهم استحلوها وامتلكوها بتاتاً . فعاثوا فيها عيثاً حتى ظهرت عليها علائم البلى والدمار وتصدعت حيطانها وتداعت سطوحها ولم تاذن لهم اشغالهم المهمة ان يداروها ويتلافوا خرابها . ولما اقبل الشتاء حفروا القاعات والباحات وفتشوا عن الكنوز فالفوا شيئاً كثيراً التهوا به زماناً

ومما يجدر بالذكر ان هولاء الهاجرين كانوا ميالين الى الوسخ والقذر فكانوا يجمعون الزبل ويكومونه كوماً كوماً لئلا يضيع . فتاتى من ذلك ان الروائح الخبيثة انتشرت وعمت العدوى فيهم وفي من جاورهم . وافضى النفـاق ببعضهم الى ان اقتلعوا الاخشاب وقضبان الحديد وباعوها ففقدت الدور العامرة كبيوت قريـة دوخها العدو وضعضع ابنيتها . وما قولنا في الكنف والمراحيض فانهم سودت وجوههم بعد ان ملاوها فتحوا غيرهـا داخل الدور حيث يقومون ويقعدون وياكلون ويشربون . ومحصول الكلام ان دور الارمن في محلة سورب كورك تداعت وانهـدمت وفي غربي البلد تعوشت وتقوضت وفي حي المشكية امست كالمزبلة . ومـا زالت دور الوجهاء الى يوم كتابة هذه الاسطر تحت قبضتهم . لاننا من حيث وجودنا في قعر الدنيا قل من يفتكر في امرنا . ذلك يؤكد لنـا ان لا معين ولا محامي لنا البتة سوى الاله الواحد القهار

الفصل الرابع

الوباء

اعلم انه منـذ ١٦ شباط ١٩١٦ اخذت الجنود الترك تتوارد الى ماردين افواجاً فامر اولو الحل والعقد ان تخلى لهم الكنائس والجوامع والدور الكبيرة فازدادت من ثم النوب السود وتتابعت الفتوق من مرض وجوع وفقر الى غير ذلك من الافات التي جلبتها الحرب اللاقح على البشرية . لانه من الحرب كما لا يخفى تتلد الاوبئـة والمجاعات والفقر وخراب الديار . فصح فينا ما كتبه حزقيـال

(ص ٧) « السيف من خارج والوباء والجوع من داخل . فالذي في الصحراء مات بالسيف والذي في المدينة اكله الجوع والوباء » بناء عليه سرت الامراض العضالة كالدمامل والقروح والاخرجة والاورام والحميـات المطبقة وشملت الانسان والحيوان معاً ولم تعف الشيخ والشاب ولا الكبير والصغير حتى امتلات المقابر وعجز الاحياء عن الدفن . فكنا اذا حضرنا جنازة متوفىً عزينـا آله وحرضناهم ليشكروا الله لانه تزود وكفن وصُلي عليه وشيع ودفن خـلافاً لاخوته الذين امسوا في البراري طعمة للوحوش الضواري . وبالتالي أنست الاسماع بذكر الموت ولم يعد احد يهابه كامس وما قبل . وبلغ عدد المتوفين من جماعة السريان الكاثليك فقط خمسمائـة نسمة بنيف

. اما رفعة دكتور البلدية فامب كعبه وقت الوباء وراح يستنبط الادوية لاستحصال الذهب وكان يرسل الى بيت كل ميت قنينة ماء يمزجه بشيء من السليماني ويقبض بدل ذلك قدر ما يريد . والويـل لمن لم يكن يتعالج عنده فكان يرافعه الى الحكومة ويخسره المبالغ الوافرة او يامر بحرق فراشه واثاث داره . من ذلك انه لما توفيت حبو قرينة جرجس ماران حرج عليهم رفعة دفنها ولكنه لما قبض من زوجها خمساً وسبعين ليرة ذهبية صح عنده الدفن ورخص فيه . وكان قد اقام الحفظة على باب البلد يخرجون دفن من لم يحمل تذكرة جواز ممضية بختم رفعة والا استوجب اصحاب المتوفي سخط الدكتور فامر بنبش القبر ليفحص الميت كما افتعـل ذلك بيوسف سفر السرياني وغيره

الفصل الخامس

الجبّانات

تخيّر اولو الامر مدينـة ماردين لمثوى العسكر المرضى نظراً لطيب مناخها ومن ثم فلما وصلنا الى اذار ١٩١٦ احتشد العسكر في الكنائس والجوامع ودير السريان ومقام البرتستان ودور وجهاء الارمن والسريان الكاثاليك كدار جانجي وشلمي وكندير ودقماق وجاندري وسوسي وفروجي وكجو وبطاني وغيرها فشغلها العسكر باجمعها. وتأتى من ذلك ان الهواء تبدل وانشب الوباء فيهم مخالبه الجارحة واصبحت البلدة كلها مستشفيات للعسكر المبتلين بالامراض والعاهات . وحدثت لسبب فساد المناخ اوبئة جارفة اكتسحت قسماً من العسكر جسيماً . فاقاموا حفارين في طرفي البلد الشرقي والغربي للحفر واللحد . وكان رئيس الحفـارين حبيب طوراني السرياني . فكان هو واصحابه يحفرون كل اصبوحة خندقاً طوله خمسون ذراعا في عرض ذراعين يدفنون فيه يومياً من الستين الى السبعين عسكرياً يحمل الميت نفران على الخشب حتى اذا وصلا به الى الجبانة عريا وعادا بثيابه ليلبسها غيره فيصاب بالعدوى نظيره

وزاول الحفارون شغلهم سنة كاملة حتى ضاقت الارض بالجثث فامتلأت اراضي بنج علي وعين مسافر وجبانة السريان الكاثليك وما جاورها ونواحي باب الصور برمتها كأن الله العدل اراد الانتقام ممن سبب اهدار دم الابرياء . ولما كانت سنة ١٩١٧ قـلّ عدد الجنود فقلت الوفيات وصارت تتراوح يومياً بين العشرين الى الثلاثين

واحصي عدد الجنود الذين دفنوا في غربي البلد فقط من اذار ١٩١٦ الى ايلول ١٩١٧ فكان خمسة وعشرين الفا ومذ تشرين ١٩١٧ الى نهاية سنة ١٩١٨ نحو الفين . دع من مات ولحد في شرقي البلد . ومات من عسكر الالمان ثمانيه لحدوا في مقبرة الارمن ثم نقلت اجسامهم الى راس الميدان ووضعت فوق ارماسهم الصلبان

والويل لمن كان يجتاز بشوارع البلد اثناء ذلك فان الجنود كانوا يضطرونه ان يحمل الميت علـى ظهره الى المقبرة كما حدث الامر لكثيرين من جملتهم افرام بردعاني السرياني الذي استاقه احد الجنود الى دار جانجي وحمله ميتا ولما شارف كنيسة السريان اليعاقبة وتعب جداً دفع للعسكري خمسة غروش وانصرف . فمر غيره فكلفه العسكري ان يحمل ذلك الميت فاعطاه شيئا وانهزم واخيراً حمله العسكري عينه الى المقبرة

الفصل السادس

المجاعة

لا يزال دوي الجياع يطرق مسامعنا وهيئتهم الموجعة تتمثل لمخيلتنا فتثير في قلبنا عوامل الحزن والتاسف اذ كنا نراهم يقصدون الابواب ويقرعونها ليلاً ونهاراً طالبين كسرة خبز لسدّ جوعهم وكانوا يستطيبون خبز الشعير والنخالة والبلوط وحب القطن والذرة والكشنى بل شاهدنا غير واحد من اولاد الدروب يلتقطون من علـى المزابل بعض الحبوب فيلتقمونها ويلتهمونها

ولعمري ان رجال الحكومة كان في وسعهم ان يخففوا عنـا

ويلات المجاعة ولكنهم لم يعنهم امرنا بل حشدوا في بيوتهم القمح والطحين وغضوا عن الفقراء والبائسين . اما النصارى فلشديد رعبهم ما كانوا يتجرأون ان يراجعوا الحكومة لئلا تقضي بهلاكهم كما افتعلت بسريان الكعبية (بدياربكر) فانهم وقت المذابح انهزموا الى الولاية ولما ضاقت عليهم بواعث المعيشة راجعوا عبد النور مطرانهم فعرض امرهم على رشيد الخبيث فامر مدير الناحية الشرقية فمضى بهم الى قريتهم ليشغلهم في الفلاحة على زعمه . ودوّن اسماءهم - الا يحرم احد من سخائه وكرمه - ولما وصلوا وزّع على كلٍ رغيفاً . وفي تلك الليلة عينها استاقهم الى ناحية ديركه يقول انه يريهم الاراضي التي يلزم حرثها ولكنهم ما ساروا الا القليل حتى انصب عليهم الجنود وفتكوا بهم واتلفوهم بالفؤوس والقضبان والسياط والحجار وكانوا خمسمائة واربعة وستين شخصاً . هذا جزاء من سال الحكومة قوتاً

ومما زاد الطين بلة انه بعد مذبحة نصارى القرى قحم المشايخ والوجهاء على المخازن والاهراء وامتصوا خيراتها واقتنصوا ريعها بل بلغت اللآمة من اصحاب المطامع الاشعبية ان استسلفوا اصحاب الزروع ذهبا كثيراً واستحصلوا منهم الحبوب وخزنوها في الاهراء ليبيعوها من الالمان اصحاب السكة الحديدية وكان من خبث نيتهم ان يوصلوا اسعارها الى حد يستهلك البشر عامة فييأسون من الحياة وتبقى الدنيا بما فيها لهم وحدهم . ولكنه تعالت احكامه الغامضة الهم قلوب اقطاب الارض الكرماء فاخذتهم اواصر الشفقة ونادوا بالهدنة والصلح فهبطت الاسعار وحبطت امال التجار وشكر الجميع

للمولى الكريم واثنوا على من انقذهم من الهلكة والدمار

الفصل السابع

ميتم السريان الكاثليك ومستشفاهم

اصبحت كنيسة السريان الكاثليك منذ سنة ١٩١٦ الى ربيع سنة ١٩١٨ كمستشفى وميتم وماوى للغرباء والمعوزين والمجلين والبائسين فكانوا يقصدونها ويستعطفون رئيسها السخي الكريم ليكفيهم البأس والبرحاء . ولما راى السيد جبرائيل تبوني ما صار اليه هولاء المنكودو الحظ نهض نهضة اباء الكنيسة الاولين وبذل قصي الوسع في كشف الضيم والضنك عنهم فاستقرض المبالغ الوافرة واشترى الذخائر والمؤن من قمح وشعير ودخن وبلوط وسعى في نسج الثياب والالبسة فتيسر له بتلك الوسيلة ان يجرّهم من مخالب الموت

وما اكتفى الحبر الشهم بذلك بل تعطف على الذين اصيبوا باصناف الامراض فاعدّ لهم الادوية واقام لهم ممرضين يعنون بامرهم وفوض الى القس يوسف رباني وكالة الميتم والمستشفى فنهض الاب النشيط والف جمعية خيرية اشترك فيها زهاء ثلاثمائة من المؤمنين كانوا يؤدون له اسعافاً شهرياً فيوزعه الاب على المنكوبين . وكان يقدم في كل احد القداس الالهي في شان المحسنين الاسخياء ليجود الرب عليهم بسوابغ نعمه وبركاته

وساعد الاب يوسف في تلك الاعمال المبرورة حنا جرجور (بشطا) واستنسلاس بردعاني ونعوم حال فهذا كان يعالج المرضى ولاسيما الذين كانوا شعث الشعور غبر الالوان او اصيبوا بالصلع

والقرع لقلة النظافة اما الشابان الاولان فكانا يجولان البيوت يتعهدان المرضى والفقراء ويصفان لهم الادوية ويدرّان عليهم العطاء . وقتلا الليالي هما والقس يوسف في سبيل ذلك المشروع الخيري حتى انه ليلة سابع شباط ١٩١٨ اذ كان الاب يراجع دفتر الفقراء مع استنسلاس ُقلب عليه زيت الغاز فاحترقت يداه ووجنتاه وعنقه واذناه فعالجه زمناً الدكتور قسطنطين الكريم وشفاه نوعاً بعد ما قاسى من الالام اشدها مدة ثلاثة اشهر ثم استجمع قواه وواصل شغله

اما سائر الكهنة فكانوا يلقنونهم مبادئ التعليم المسيحي ويهيئون الصغار منهم الى المناولة الاولى وصرفوا في ذلك الايام الطويلة فجاءت اتعابهم باشهى الثمار . وما اكثر ما كان يتعزى قلب راعي الكنيسة واقسته الغُيُر وجمهور المسيحيين اذ كانوا يشاهدون اولئك اليتامى والفقراء الارمن والسريان متشحين بالحلل البيضاء مقبلين نحو قدس الاقداس ليتناولوا الحمل الذبيح من يد ممثله ونائبه الغيور وكانت تهيأ لهم الاطعمة وينزل الحبر وقسانه ويتناولون معهم الطعام فكانوا يشكرون ويقولون : اللهم جاز المحسنين وانعم على من تعب لاجلنا بالاجور الابدية . ولا يسعنا ان نورد في هذا المختصر اكثر مما قلنا . وللقارئ ان يستنتج من ذلك ان مبرات الكنيسة المقدسة واعمالها الخيرية تلوح خاصة وقت المعامع والنكبات. وحسبنا ان نقول ان السيد جبرائيل انقذ كثيرين من الموت والوباء وصرف على المنكوبين اكثر من ثلاثة الاف ليرة ذهبية والفضل في ذلك راجع الى السيد البطريرك مار اغناطيوس افرام رحماني الجزيل الطوبى

الفصل الثامن

سفينة تلاطمها الامواج او مآثر السيد ثئوفيلس جبرائيل تبوني راعي السريان الكاثوليك

لم ندرج في مختصرنا حتى الان الا نتفاً يسيرة من مآثر السيد ثئوفيلس جبرائيل تبوني مطران السريان الفضال وقد حان لنا الساعة ان نسرد للقراء خلاصة ما انتابه اثناء النوازل من جسيم الاخطار وما اصطنعه من المبرات . على انه كان يود من كل قلبه لو يسلب كل ماله وللكنيسة في سبيل القطيع الذي استودعه اياه راعي الرعاة بل كان يؤثر بذل نفسه حباً لخرافه انجازاً للنص الالهي « الراعي الصالح يبذل نفسه عن الخراف » ونقول القول الفصل انه تعالى اوفده الى ماردين رحمة ومغوثة للبائسين والمنكوبين

ولد السيد ثئوفيلس في الموصل في ٣ تشرين الاول ١٨٧٩ ورضع افاويق العلوم الدينية في دير الاباء الدومنكيين وارتسم كاهناً في ٩ تشرين الثاني ١٩٠٢ وعام ١٩٠٨ اصطفاه السيد يوحنا درور القاصد الرسولي كاتباً لاسراره وفي ١٩ كانون الثاني ١٩١٣ رقّاه السيد اغناطيوس افرام رحماني المثلث الطوبى الى الدرجة المطرانية ونصبه وكيلاً عاماً في ماردين . فكان عمره والحالة هذه يوم قصد ماردين اربعة وثلاثين ربيعاً فقط . وأبدى اعمالاً سامية وهمّة عالية لم يتصل اليها الا القليلون . وكان الرب يساعده في جميع اموره واليك الحقيقة

ذلك لما كان وجهاء الطائفة مسجونين مع الارمن اخوتهم شخص اليه اول دفعة ممدوح واعوانه في ٨ حزيران وطفقوا يطارحونه الاسئلة

في شأن ما له ولغبطة بطريركه من الواصلات والعلائق بالحبر الاعظم رأس الكنيسة الجامعة فقال لهم المطران انما الواصلة مواصلة دينية والعلاقة علاقة روحية

قال له ممدوح : كيف الامر عندكم في امر السياسة وكيف ينتخب البطريرك ومن يوئيده

— المطران : لا سياسة في الوسط غير ان الاساقفة بعد اتفاقهم على انتخاب البطريرك يسترحمون الباب العالي ليستعرفه وينعم عليه بالفرمان والنوط ولا يخفى ان غبطة بطريركنا حائز اليوم على النوط الرصع الثمين وهو اول بطريرك فاز به

ممدوح : اني اعرف حق المعرفة انكم تراجعون فرنسا

— المطران : نراجعها في امر المدارس لضيق ذات يدنا عن القيام بالنفقات الضرورية للمعلمين والكتب وسائر ما يلزم

ثم استفسروه عن وطنه وآله فاجابهم المطران على ذلك كله فانصرفوا وظلّ المطران تتقاسمه الهموم وتتلاعب في مخيلته امواج الافكار كمن ينتظر آخر موجة تغرقه [انظر ص ٢٩٥]

ولم يتجرّأ ممدوح ان يقبض عليه اذ ذاك لكونه غريب الوطن فيما نظن فراح يستنبط الحيل للايقاع به واستياقه وقتله فارسل اليه مع احدى النساء غير مرة شيئاً من البسة السيد اغناطيوس مالويان لعله يقبلها او يشتريها فيتسنى له ان يتحامل عليه ويلحقه باولاده ولكنه والحمد لله لم تنجح دسيسته لان الحبر الفطن استدرك المسئلة فلم يأخذ من تلك الالبسة شيئاً البتة . وصباح الجمعة ١١ حزيران كبس ثانية الكنيسة شرذمة من الجند فاتحين اعين السوء مادّين

ايدي التعدّي للقبض على الحبر النبيل فصعد اليه احدهم واشهر عليه السلاح واستعجله على مغادرة غرفته فاستمهله الحبر هنيهة ليعدّ لوازمه فزجره الجندي الخبيث وقال له بادر فان فائق افندي المعاون ينتظرك فانحدر المطران مهرولاً مذعوراً حتى وصل الى باب الكنيسة فلمحه المعاون وقال له ارجع الى حجرتك فرجع وقلبه يخفق. وفي ذلك اليوم عينه استدعى من كتب له عرضاً رفعه الى شفيق بك المتصرف السابق (وكان بعدُ في ماردين) يلتمس منه ان يخلي سبيل السريان وأوفد العرض مع احدى النساء فلم يأذن لها الاعداء في الدخول فارسلها ثانية فلم يدعها الخصوم ان تتعدّى التوتة فعادت مأيوسة . ولم يتيسر للراعي ان يبعث اذ ذاك رجلاً كفوءا بالمصلحة لان الرجال كافة كانوا مختفين خائفين

وثالث دفعة راح توفيق ياور والي دياربكر الخبيث يختلق الحجج الواهية ليصيب الغرض من المطران فلفق ورقة دسَّ فيها ما وسوس اليه ابليس ورفعها الى شفيق بك يتهدده ويحثه ان ينفي الحبر ويقتله . فاوفد شفيق في طلبه وقال له متبسماً ان عندي اوراقاً تؤذن بنفيك وقتلك . لكني اعرف انها مختلقة كاذبة لا اصل لها . وعربوناً اصدق مودتي لك قد راجعت الوالي واكدت له وثيق امانتك وصدق اخلاصك الدولة . فارجع الى مقرك مطمئناً فشكر له المطران معروفه وعاد الى غرفته

ولما عزل شفيق بك ونصب بدري الحالف القتلة حاول غير مرة ان يقبض على المطران ويسوقه . ولما لم يجد فرصة لانجاز الارب استدعاه وقال له جهرة : اعلم اني كنت معوّلاً على استياقك

ونفيك وانزال العقوبة بك بيد ان مدير التحريرات وخضر جلبي رئيس البلدية عارضاني وحاميا عنك . فارجع الى مقرك والزم الحياد والاخلاص للدولة

ووافى اليه ممدوح خامس مرة وشرط عليه ان يجمع مبلغاً جسيماً من الذهب من ابناء الطائفة وضرب له ثلاثة ايام مهلة . فشملته الهموم وبادر الى الكنيسة وانطرح يصلي باخبات ليلهمه الله ما به الخير والنجاة . ثم اختلى بالاباء الدومنكيين الثلاثة واستشارهم فقال له رئيسهم الاب بيره : الاجدر ان تدفعوا المبلغ لانكم بهذه الذريعة تماطلون الاعداء وتتمكنون من ايصال الخبر الى اولي الامر لعلهم يبعثون الاوامر بنجاتكم . ولا يخفى انه حين اشتداد شوكة العدو يجب ان تجعل الاموال ترساً للمدافعة عن الارواح . فسعى الحبر في جمع المال وارسل رجلاً اميناً الى ممثل جمهورية اميركا بحلب يطلعه على الاحوال لعله يتدارك الامر ويستحصل العفو عمن تبقى (هنا ص ٢٨٩)

ويضيق بنا الذرع عن استيعاب المتاعب التي تكلفها هذا الحبر الجليل في تلك الاثناء الخطرة حتى تمكن من ابلاغ الحوادث على جليتها الى المقام البطريركي . فانه كتب الى البطريرك المغبوط يطلعه بالرموز والالغاز عما جرى فكتب له تارة ان الحاجة الى حسنات القداديس غدت اقل من ذي قبل . مريداً بذلك ان عدد القسان نقص . وكتب الى غبطته ايضاً ان مسيحيي ماردين مفتقرون الى ادعية متواصلة ليمنحهم الرب ما منح المسيحيين الاولين من النعم الممتازة . وكتب اليه ايضاً اننا نطالع في هذه الايام الاصحاح

الثاني من انجيل متى : يشير بذلك الى قوله « صوت سمع بالرامة بكاء وعويل كثير راحيل تبكي على بنيها وقد ابت ان تتعزى لانهم ليسوا في الوجود »

وكتب رسالة اوفدها الى ممثل اميركا بحلب دوّن فيها حالة المسيحيين ووجوب المبادرة الى استنقاذهم وبعثها مع رجل دفع له مبلغاً وافراً فاكل المبلغ واضاع الرسالة . ولم يشعر البطريرك المغبوط بما نال جماعته من الاخطار والمذابح الا في ١١ اب ١٩١٥ فاوفد اذ ذاك الى السيد جبرائيل نائبه على لسان البرق ما نصه « دولة قائد الفيلق الرابع العام « جمال باشا » اذن الاستعلام من ولاية دياربكر بلغنا ان جماعتنا هناك مشمولون بحسن انعطاف الحكومة السنية . كذلك وكيلنا بالاستانة تيلنا صورة التوصيات السامية الى اولياء الامور بحق جماعتنا . فواصلوا رفع الادعية بشان الدولة العلية » واوفد تلغرافين آخرين الى الوالي والى نائبه في ذلك المعنى

ولما انشبت المنية اظفارها في والده المرحوم داود تبوني في ٢٩ كانون الثاني ١٩١٧ اقبلت شرذمة من الجند في اليوم عينه واضطرته ان يخرج من غرفته ليشغلها قائم مقام العسكرية فنقل حالاً الى الطبقة السفلى وظلت الحكومة واضعة عليها اليد حتى غاية الحرب وفي الحق ان الطائفة بل جميع المسيحيين ما اطمأنوا الا بعد استحصال تلك الاوامر والفضل كل الفضل في ذلك لغبطة السيد البطريرك

والى هذا الحبر الغيور يرجع الفضل في انقاذ عدد كثير من اولاد الارمن ونسائهم بعد ما صرف لسبب ذلك المبالغ الوافرة وتكبد الاتعاب الجمة . واليك اسماء الذين سعى في فكهم من

الاسر والعبودية

روزا واغاتا ويعقوب اولاد غبطو بن اسكند آدم. وابنة انطون كسبو . وحنه قرينة مال الله شقيق السيد اغناطيوس مالويان . وناصر بن عبد الكريم سعيد . وفهيم بن حنا قزازيان . وبيدروس بن كورك جلبيان وارسله الى دياربكر عند الاب اوسيب. واغانيف قرينة عبد المسيح قاووغ . ومعلمات سعرد الثلاث . وجميله الفتاة الرهاوية التي القاها الخصوم من السطح فانكسرت ساقها. وابن وبنت لاسرة شعيا الكلدانية السعرتية كانا عند احد بكوات الضور والا وافى هذا البيك يلتمس من المطران ان يراجع الدكتور قسطنطين صديقه الحميم في مسئلة معالجته شرط عليه المطران ان يبعث له الولدين المشار اليهما فانجز البيك الشرط وبعث الولدين الى المطران فارسلهما الى سعرت . ونضيف الى هولاء امراة شمعون الارمني وكانت في العوين وايليزه وامها وكانتا من ارضروم . وابناً لشقيق الدكتور ارميناك خاخاميان من قونيه . ومنصور طوباجيان الذي عمده السيد جبرائيل وتبناه القس يوسف رباني الى ان جاء عمه واخذه

والخلاصة ان هذا الراعي النبيل لم يتقاعس عن خرافه ولاسيا عن الارمن اثناء النوازل والكوارث بشيء من الكد والكدح ولم يضن عليهم بالعوارف والاحسانات قدر ما تمكن. ومن شاء الاطلاع مفصلاً على مبرات هذا الراعي الغيور فليطالب الكتاب المزمع ان ينشره بالفرنساوية الاب يوسف رباني السرياني المطلع على اعمال سيادته اذ كان في تلك الظروف كاتباً لسره ووكيلاً للفقراء والبائسين

الفصل التاسع

الفرنساوي الغريب

نشأت الدولة الفرنسوية على الكرم والاريحية وأشربت منذ نعومة اظفارها حليب التعطف على البشرية وأولعت ببذل المبرات الانشئة المسيحية وبثت هذا الروح الطيب في قلب شعبها حتى صار يشار اليها بالبنان في هذا الشأن ويتباهي بفضلها وجودها كل انسان. وقد قيض الله عز شانه لمؤمني ماردين اثناء النكبات آباء فرنسويين افاضل امتازوا كدولتهم بحب الخير والمكارم وصرفوا عنايتهم في التوسيع على الملهوفين فاعتقوا جمهوراً صالحاً من السبي والذبح وانقذوهم من المجاعات والاوبئه وخلدوا لهم الذكر الطيب على توالي الزمان

ذلك انه في ٢٦ كانون الاول ١٩١٤ شخص من الموصل الى ماردين ثلاثة آباء دومنكيين اعني الاب دومنيك بيره رئيس الرسالة والاب يعقوب رتوره وكيل القصادة والاب سمعان ياسنت معلم المدرسة وحلوا ضيوفاً كرماء عند السيد ثوفيلس جبرائيل تبوني مطران السريان فتوسل الى صديقه حلمي بك المتصرف ان يستحصل لهم الاذن في المكث لديه اثناء الحرب فراجع المصادر العالية وفاز المطران بما تمنى . وكان مع الاباء خادم موصلي اسمه جرجس قبض عليه الجند في ١٢ حزيران وساقوه الى شيخان وفتكوا به (هنا ج٣ ف ١٢) فتاسف الاباء عليه واضربوا عن مراجعة اديب النائب خيفة ان يهريق عليهم اكواب الغضب والعطب ولزموا غرفهم

وتهيأوا غير مرة للرحيل . غير انه تعالى ابقى عليهم لعمل اسمى وافضل اعني لمؤاساة الحزانى واعالة الفقراء واليتامى واعتاق الاسرى علــى انهم لما راوا الاعداء يبيعون اولاد الارمن في الازقة كالسلع فوضوا الى قوم من المسيحيــين ليشتروهم ويحضروهم الى كنيسة السريان فكان الاباء يوآسونهم ويبالغون في الاعتنــاء بهم وصرف المكاره عنهم . ولما ضاقت بهم حجر الكنيسة وزعوهم في البيوت وانفقوا عليهم ما يلزم لكسوتهم وقوتهم مما بلغت قيمته اكثر من عشرة آلاف فرنك على ما نخمن

وطال مكث الاباء في الدار البطريركيــة السريانية الى ١٨ تشرين الثاني ١٩١٦ وهم مثابرون على اصطناع المعروف والخير وزاد الاب بيره على ذلك كله انه نمق الكنيسة الكاتدرائية وزين مذبحي قلب يسوع وسيدة سالت بنقوش مستبدعة مستظرفة تستلفت الانظار فرسم حول المذبح الاول جفنة ذات زرجونات فنواء وعناقيد حمراء وسنابل خضراء تاخذ بمجامع الافئدة . ودبج مذبح العذراء بضروب الزنبق والبنفسج وانواع الزهور الرائعة تحف بهــا اخراز السبحة الوردية على شكل لآلى نفيسة غاية في الرونق والبهاء . ثم بذل الجهد والتعب في هنــدسة مذبح مار يوسف فاستحضر حجراً اصفر رسم هيئته بيده ولقن النحات فاشتغل نقوشه الدقيقة الرفيعة على احسن طرز ودفع قيمة ما صُرف عليه الاب يوسف رباني الموصلي فغدا ذلك المذبح نزهة للناظرين ومجلبة لانذهال المؤمنين . اما الاب يعقوب فكان يطوف ما بين اليتامى والبائسين ويبذل لهم النصائح الابويــة ويسري عنهم الغموم . وراح الاب سمعان يلقي الدروس

على التلامذة الذين رجعوا من المدرسة الدومنكيــة ويخدم المرضى ويعزي الارمن المنكوبين اذ كان متضلعاً بالارمنية والتركية معاً

ومما يجدر بالذكر ان المدارس الاقليرسية في بلاد تركيا أغلقت جميعها الا مدرسة السريان الكاثليك البطريركية المعروفة بمدرسة الشرفة[1] في لبنان . فان غبطة السيد اغناطيوس افرام رحماني بطريرك السريان الكاثليك نهض نهضة الابطال وجمع اليها شتات التلامذة السريان من دير اليسوعيين ببيروت ودير البندكتيين باورشليم ومدرسة مار لويس الكبوشية بالقسطنطينية وشملهم بانظاره الابوية وقام باعباء جميع حاجاتهم اثناء الحرب كلها وتفضل عليهم من جيبه الخاص بجميع ما لزمهم لخروجهم من تلك الازمة سالمين مواصلين دروسهم . ودافع عنهم بكل طاقته يوم صممت تركيا ان تخرجهم من ديرهم وتجندهم ولاقى لسبب ذلك اتعاباً جزيلة وانفق مبالغ طائلة فتيسر له بعد جسيم العناء ان يرقي الى الدرجة الكهنوتية في ٢٤ ايار ١٩١٥ القس ميخائيل آجيا الحلبي ورسم في ٧ ايار ١٩١٦ القس يوحنا رحماني والقس بهنام يوحنا عزو الموصليين والقس يوسف بجوده البغــدادي والقس جرجس حمال الارديني والقس بطرس شهله النبكي . ورقى كذلك في ٥ ايار ١٩١٨ الى الدرجة الكهنوتية القس يوسف رزقو الندوري ووضع اليد في ١٣ نيسان ١٩١٩ على القس اسطفان بجاش الحلبي والقس افرام

(١) ضارع دير الشرفة في مواصلة الدروس الكهنوتية غير واحد من اديرة الروم الكاثليك واديرة السريان الموارنة في جبل لبنان ولا سيما المدرسة الاقليرسية للرهبنة المخلصية ومدرسة المرسلين اللبنانيين بدير الكريم بالرغم عن المشقات الكثيرة والكلف الوافرة

حنا فرنساوي الوصلي . وبذلك اولى الطائفة السريانية خيرًا عظيماً وعوّض عن اكثر من اربعين كاهناً سريانياً ذبحهم الاعداء في بلاد ما بين النهرين

هذا ولما استحصل الاباء الدومنكيون الاذن من العاصمة وغادروا ماردين وصاروا الى حلب أُصيب الاب سمعان بالحمى التيفوئدية فلزم دار الخواجات مركوبلي الايطاليين وخامن الاب بيره والاب يعقوب الى قونيه في كانون الاول ١٩١٦ وسارَ معهما الاب دانيال الكبوشي وظل الاب سمعان متزوياً في دار اسرة مركوبلي النبيلة حتى ايار ١٩١٨ فاتهمه اعداء الخير تهمة منكرة ونددوا به واخرجوه من خلوته وزجوه في السجن وبعد ما وقفوا على برارته حكموا عليه بالسجن سنتين لكونه فرنساوياً بحتاً وسترى كيفية ذلك في خاتمة كتابنا هذا

الفصل العاشر

اليتيم الشارد

مكانك ايها الفتى النجيب . مهلاً ايها المسيحي الحبيب . ما لي اراك مجال نكدة مولّهة تركض من بيت الى بيت تتحوج وتستعطي ما يسد جوعك . ما بال لباسك مرقعاً وثوبك ممزقاً . ما لك تقطع الطرق حافياً وقد علا الغبار جبهتك وبدل هيئتك . اراك مسلوت الراس مكشوفه موسخ البدن ضعيفه . يلوح لي من سمتك ورشاقة قدك وجمال بلجتك انك ذو حسب ونسب منتمٍ الى اصل شريف أثيل وعنصر طيب نبيل . فبحقي عليك تريث ريثما اشبع بصري من

روئية محياك واشنف اذني بعذب خطابك . اما في ودك ان تورد لي شيئاً عن احوالك وتكاشفني بمضمرات فوادك . وتفيدني عما جرى لك حتى اوصلتك بوائق الايام الى هذا الحال المشوءوم . رحماك لا تخف عني شيئاً البتة فاني استعذب محادثتك ولو طالت واحب الوقوف على اخبارك ولو تخللها ما يكرب الخاطر ويجري المدامع. فهلم هلم اضمك الى صدري وارطب بمفاوضتك لهيب شوقي . تعال نجلس ههنا ردحاً من الزمان ثم تعود الى مواصلة مهنتك المحزنة المؤثرة !

ما اسمك ايها الفتى العزيز — اسمي كذا

ابن من انت — انا ابن فلان من الاسرة الفلانية كنت البس البرود واتقلب في خفض عيش فهجم ذات ليلة على دارنا شرذمة من الجنود الاوغاد فاعترانا الفزع والهلع لمنظرهم واستحوذ على والدتي واخوتي واخواتي الخوف والوجل فجعلنا نصيح ونتنحب كبنات آوى وننوح نوح بنات النعام على ما بغتنا

ثم ماذا

فتح اولئك الانذال الابواب قسرًا وانقضوا علينا كالبزاة الجارحة وحملقوا فينا الابصار ونشموا يضربونا ويوثقونا وقالوا انهم مزمعون ان يسوقونا ويرحلونا فحارت امي في امرها وازداد خفقان قلبها وجعلت تسح الدموع السخينة على وجنتيها اللطيفتين ملتمسة منهم ان يشفقوا علينا ويفرجوا عنا فما كان من كبيرهم الا ان انتضى سيف سخطه وقطب وجهه وقال البدار البدار والا ذبحتم كلكم في بيتكم . وكان لي اخ رضيع في المهد أودّه شديد الود فاضطروا امي ان تحل قمطه فطفق يبكي بكاء مرًا اثر في قلبي وتناول من

ساعته ثدي امي وجعل يرتشفها بلهوجة وقبض على ساعديها كأنه يريد ان تبقى مستقرة بموضعها فسخط احد اولئك القساة العتاة، وسفقه على خديه النحيفتين وانتضى خنجره فنحر جيده كما تنحر الشاة فتفجر دمه النقي وخضب ثوب امي الثكلى المسكينة. فجعلت تندبه باكية قائلة « اي فلذة كبدي وحشاشتي اني غذوتك رضيعاً وفقدتك سريعاً » لقد جرحت قلبي وادميت فوادي . ما ذنبك يا ولدي .. الذنب ذنبي لاني لم اوفّ امنية الخصم عاجلاً . ارحل اذاً الى من صوّرك في مستودعي فاني اليه استودعك وعليه القي ثقتي واياه استلهم الصبر الجميل على فقدك راغبا اليه ان يوردني ويورد اخوتك لشرب كاس المرائر بعدك حباً له ولاعانه

الم يتيسر لوالدك ان يعارضهم ويقدعهم عن ارتكاب هذا الفعل الشنيع المنكر

والدي ! آه والدي المحبوب . تستخبرني عن والدي .. ووالدي العزيز قبل ذلك بأسابيع معدودة قبض عليه الجنود الوحوش واستاقوه الى السجن وانزلوا به العذاب ثم استاقوه مع اصحابه الى شيخان وهناك على ما فهمت ناشبوا عليه وجندلوه ثم اعملوا فيه سيوفهم كسائر رفاقه المسيحيين .. والهفتي عليك يا ابتاه !

وماذا افتعل الجنود بكم

اخرجونا من دارنا ولم يذرونا ناخذ شيئاً معنا من الزاد والمتاع ثم اقفلوا الابواب وغلقوها وجعلوا يهمزونا وينخسونا ويستركضونا الى باب السور وهناك اعدوا لنا حميرا وجحاشا دون بردعة فآثرنا المسير على الركوب حتى شافهنا قرية يُقال لها حرّين فلم يدعونا نستريح

بل استاقونا الى جهة تل ارمن بعذاب شديد فاستيقنت اذ ذاك والدتي بقرب اجلنا فاستدعتنا اليها فاحطنا بها احاطة الهالة بالبدر وجعلت تنصح انا لنتشدد في ايماننا وتنشطنا لنخوض غمرات الالام كيسوع مخلصنا

ايخطر ببالك شيء من تلك الحادثة الرقيقة اللطيفة

كيف لا تخطر ببالي وقد خلفتها في قلبي بمثابة اثمن تذكار واشهى شيء على قلبي . على ان امي بمفاوضتها تلك ضارعت لوقينة الشهيرة وبنقراتيوس نجلها الودود حسبما افادني معلمي في المدرسة عن فذلكة تلك المخاطبة . فقالت لنا اناشدكم ايها الاولاد البررة ان تتذكروا التعاليم التي لقنتكم اياها منذ صغركم وتخطروا ببالكم المبادئ التي درستموها على معلميكم الافاضل واياكم والجزع او القنوط .. وبعد ان هيجت في افئدتنا عوامل الحماسة والتجلد على العذابات وضعت يمينها المباركة على هامة واحد فواحد منا فخررنا امامها وادنينا تلك اليمين من فينا وجعلنا نقبلها ونقول : لا تخشين يا اماه فانا واثقون بعناية ربنا ان لا يصدر منا الا ما يسر خاطرك . اننا تائقون بجامع قلبنا الى تضحية دمنا كأبينا المحبوب ولا بد لنا من اقتفاء آثاره . فكوني مطمأنة البال يا اماه . ثم اسندنا راسنا الى صدرها وحدقنا الابصار الى محياها الوضاح ودهشنا من امارات الحنو والابهة اللائحة عليه

ثم ماذا صنعت والدتك المحبوبة

قالت لنا بصوت متقطع متهدّج والدموع ترفض من عينيها النجلاوين وتبلّل خديها الحمراوين : اني لا اكتم عنكم ان والدكم

الكريم جاد بنفسه لدن تهافت الضربات على راسه . فيا حبذا لو
اصابنا ما اصابه . فان قصارى منيتي ان تخوضوا المعركة معي وتخرجوا
منها مظفرين منصورين بعون ربي . ولا تبتئسوا او تتحسروا على
خسارتي ذهبي وحلي التي استلبها الظلمة الغدرة تجاهكم فانتم حلي
وحللي . . وبعد ان انهت كلامها الحلو المستعذب اخذت تصلي
على حدة

اني اشعر بشديد تأثرك وكمدك ايها الفتى الحديد الفؤاد الوديع
في الاجابة لاني ما كدت استخبرك عن حالك حتى اتسعت في الكلام
وافضت في التعبير من دون ان يتلعثم لسانك . ولكنك قد جرحت
قلبي والمتني جداً بتاوهك واسفك

. كيف لا اتأوه واتاسف وقد فقدت ابوي واخوتي وخسرت مالي
وثروتي وحرمت جميع ما كان لابي . وبتّ لا املك شروى نقير
واضطررت ان اسوح من زقاق الى زقاق واطوف من بيت الى بيت
اكدي لاحصل على بلغة اسدّ بها جوعي . وزد عليه انه لم يبق لي
قريب أبيت لديه ولا محل التجىء اليه . فلا تمسي علي الامسية حتى
الوذ باخربة دكاكين الارمن ذويّ التعساء واسند راسي الى حجارة
لينة طرية حتى اذا بدا ضو الصبح قمت للاستعطاء والتسول . فهذا
دأبي مذ رجعت من القافلة حتى هذه الساعة

فاتني ان اسألك عما جرى لوالدتك واخوتك

رحماك ايها الجليل لا تجدد جراحي وتثير فيّ لواعج الكمد
والأسى فان القصة طويلة عريضة افتقر في سردها واستيعابها الى
ساعات ولا يسعني ان اعرب لك عن علاتها وتفاصيلها على جليتها .

غير اني اعتباراً لمقامك اقص عليك شيئاً ولو نزراً مما حفظته ذاكرتي
الضئيلة . ذلك لما غادرت البلد مع امي واخوتي على الصورة التي
شرحتها آنفاً ووصلنا الى اول مرحلة وعجنا بها قليلاً اخرجت امي
خبزاً من الحقيبة لنطعمنا . فهجم اولئك الظلمة والتفوه فبتنا نشكو
الطوى ونستسقي الماء لارواء ظمأنا فلا يسقينا احد . ثم استهدجنا
البرية واختضنا الطريق حتى يممنا قرية تدعى عبد الامام وهناك
تالب اعلاج الاكراد والخبث لائح على صورهم الممسوخة والدهاء
محشو في قلوبهم الغليظة . وعقدوا عزائمهم على الفتك بنا قاطبة
فنظروا الينا نظرة فهود جوعة واوقعوا فينا صيحة عظيمة حاكت
خوار الوحوش الضارية . فارتجفت اعضاؤنا وايقنا بحلول الاجل .
ثم نشموا يقذفون من افواههم النجسة كل قبيحة وشنيعة وجدفوا
على الله تعالى وعلى مسيحه وعلى الدين واسراره . ثم اقبلوا فعرونا
وجرونا وطفقوا يرمونا بالحجارة واستاقونا هكذا طبقاً طبقاً الى حفرة
قريبة وتقاسموا بابليس رأسهم انهم لا يذرون منا احداً . فبقيت
انا في جوف القتلى لا ادري اني في عالم الاحياء انا ام في عالم الموتى وعند
الفجر وافى ثلاثة اعلاج وانغمسوا ما بين القتلى كأنهم دواب قاموا
على العلف ينشون فسلتوا الامعاء واستخرجوا منها الذهب وانا الحظهم
صامتاً جامداً . ثم واروا الجثث في تلك البالوعة المرعبة – غير اني
نسيتُ ان اذكر لك من والدتي المحبوبة فان الجنود ضربوها نحو
ثلاثين خنجراً ولحت شفتيها اذ ذاك تتحركان اذ لم يكن خيط
حياتها قطع بعد ثم رايتها ترسم بيمينها علامة الخلاص على جبهتها
وبعد هذا فاضت روحها بيد خالقها فبكيتها بكاء مراً ثم انثنيت

اعزي نفسي بانها صارت لي شفيعة في السماء . اما انا فاشفق على اولئك الثلاثة كما اشفق غيرهم على من كان مثلي في السن والقدر واستخرجوني من بين الرفات ومضوا بي الى بيتهم واطعموني حتى تراجعت نفسي

ثم ماذا عرض لك

سرت مع اولئك الاوغاد مرددًا في فكرتي ما اصاب والدتي واخوتي مرنّماً مع اشعيا النبي « ستفرح البرية وتبتهج البادية . هوذا الهكم النقمة آتية . مكافأة الله حاضرة (ص٣٥) ومكثت عند احد اولئك الثلاثة اخدمه بلقمتي حتى اذا تصرم الخريف والشتاء واقبل ربيع ١٩١٦ وضعت دمي بكفي وخاطرت بحياتي وبرزت من عنده وانهزمتُ متقلبا من قرية الى قرية اتقوت بالحبوب والاعشاب البرية واحتجب عن وجوه الانذال حتى وصلت الى بلدتي . وكنت لبساطة قلبي اظن اني سارى دورنا معمورة وامتعتنا باقية ولكنه خاب املي كما عرفت واختنق رجاي وما عاد لي دار ولا عقار وتُركت على انقى من الراحة واضطررت الى التسول والاستعطاء وامصيبتي وشقائي فان حالتي جلبت الي مقت الناس ونفورهم علاوة على نوائبي الكثيرة . ليت شعري متى تتصرم هذه الايام النحسة ويمنّ الرب على شعبه بالنجاة من المظالم

— كفاك ايها الفتى الحاضر الذهن . حسبك ايها اليتيم الكسير القلب فقد اسال بكاؤك مدامعي وافار اشجاني

نهنه دموعك كل حيٍّ فانٍ   واصبر لقرع نوائب الحدثانِ

— تريد ان تكلفني ما لا اطيق واحبس نفسي عن البكاء وفي

المثل هو ابكى من يتيم . بناء عليه يجمل بي ان اندب حالي وابكي حتى تفيض روحي

اذكر ايها الفتى العزيز انه ما من احد تحت الزرقاء نجا من البلايا والرزايا فانصح لك مع القائل

هوّن عليك الامور واعلم   ان لها موردًا ومصدر
واصبر اذا ما بليت يوماً   فان ما قد سلمت اكثر

ثم اعلم انه لا بد من يوم تنكشف فيه غياهب الغدر وتلوح شموس الحق والعدل فترفع رفيعتك لا الى حكّام الارض بل الى حاكم الحكام وقاضي القضاة فيسحت كل من بسط الى البري يد الاثم والتعدي بافظع العذابات ويدهوره الى قعر الدركات ويدفعه الى راسه ومعلمه ابليس عش اللعنات فيزجر عليه زجرة ابدية ويقبض على عنقه بمخالبه النارية ويمتص دماءه القذرة ويقذفه في جوف النيران الجهنمية فيتقلى الى ابد الابدين

الفصل الحادي عشر

قدوم انور باشا والالمان الى ماردين

وفي ايار ١٩١٦ بلغنا ان انور باشا مزمع ان يتفقد البلاد ويتعهد حالة العباد . فاعدّ رجال الحكومة المدرسة الاعدادية لحلوله . وصباح ١٤ ايار خرج المنصبون والضباط والجنود والوجهاء افواجاً افواجاً للاستقبال . فاقبل انور باشا راكباً اوتوموبيلاً كبيرًا يتبعه اوتوموبيلان آخران في كل منها قائدان المانيان فدخلوا البلد بكبكبة عظيمة وما استقروا بالمحل المهيأ لهم حتى تقصدوا القلعة وتعهدوها ثم عادوا

الى المحل المعد لهم . وسار الى زيارته بعد الاستئذان مطارنة الكلدان والسريان واليعاقبة فاستوضح كلًّا منهم عن اسمه وملته وعن الصنائع الرائجة في البلد فافادوه عن ذلك بالتفصيل غير ان المطران الياس هاوله قال للباشا ان الكاثليك يساعدهم بابا رومة اما طائفتنا فنقيرة لا ملاذ لها الا الدولة العلية . فقال الباشا في ظني ان اهالي مديات منتمون الى طائفتك وقد تمردوا على الدولة فاكتب اليهم وانصح لهم ليودوا لها الخضوع والطاعة . قال المطران ذلك منوط برئيس الملة الذي يسكن اليوم في الموصل . اخيرا ودعهم الباشا الى الباب باكرام وترحاب

وما استمر الباشا في ماردين الا ثلاث ساعات ولم يأذن للوجهاء ان يزوروه وركب هو والالمان الى الموصل . ومذ ذاك صار الالمان يتوافدون افواجاً افواجاً الى بلاد ما بين النهرين حتى يشغلوها . وتفردوا بالسكنى في راس الميدان والفردوس ودار اسكندر ادم وشلمي وجعلوا مركز البلدية مستشفى لجنودهم وانتقوا طائفة من العملة ليشتغلوا في طريق السكة حتى اوصلوا الخط الى ماردين في شباط ١٩١٨

ومما اصطنع الالمان من الخير لعملة الطريق لم نرهم اسعفوا عامة المسيحيين وقت المخاطر والشدائد بل غضوا احياناً عن مساعدة العملة انفسهم . من ذلك ان عبد المسيح يونى الارمني الماردينى الذي قضى زهرة عمره في حلب شخص الى المراده في تلك الاثناء ليشتغل في السكة تحت ادارة الالمان فاوفدوه الى ماردين ليشتري كلساً فقبض عليه وعلى رفيقه نفر من الجند واستاقوهما الى السجن فارسل عبد

المسيح الى ذويه ليسعوا في انقاذه فراجعوا الالمان فوعدوهم خيراً ولكنهم نكثوا وكذبوا وظل عبد المسيح مسجوناً خمسة وعشرين يوماً لا يدافع عنه احد فمضى الجند به وبرفيقه الى جنوبي البلد وقتلوهما كليهما عند البلسيق . وبلغنا ان قنصلاً المانيا مرَّ ببرية ماردين واشترى من الاكراد قوماً من الارمن ودفع لهم ديتهم فسر الارمن بذلك وشكروا له معروفه غير ان القنصل ما تأخر ان استودع اولئك الارمن المظلومين الى الخصوم ليتصرفوا بهم كما يهوون

الفصل الثاني عشر

في الآبار والجبال والبراري والتلال

لو قصدت التطواف في براري بلاد ما بين النهرين وجبالها وتجسست آبارها وتجوفت مغاورها لشملتك الرعبة والقشعريرة فخلعت نعليك من قدميك وقلت هذه امكنة شربت دماء الابرياء ووارت اصداء المسيحيين من كل صنف وقد . وقد بلغنا ان قوماً من الالمان جالوا البراري والفيافي للوقوف على حقيقة ذلك ثم قفلوا راجعين

فكنت ترى يا هذا سنة ١٩١٥ و١٩١٦ رجالاً ونساء من كل طبقة ممددين على الطريق منهم من التي على وجهه والشمس قد جففت جثته وسودتها ومنهم من بُترت اعضاوه او قطعت هامته وتراهم جميعاً راقدين رقاداً ابدياً الطفل بجانب امه والاخ عند اخته والرضيع على ثدي مرضعه

وقد احصى لنا الذين طافوا في تلك الامكنة اكثر من ستين بئراً ناكزة وخمسين مغارة واسعة ضمت اليها رفات البشر فتحولت

الاحيان تراباً وانقلبت العظام سراداً . واشهر تلك الابار والمغاور بئار دارا وحرين والقوس/والقصور والابراهيمية والتوراط وخربة عبيد وتل كبس والعاليه وحفتاله وديركه والعراده والجراجب وراس العين . وشداده وديرالزور وارياف الخابور واقرص وشيخان وزرزوان وطريق دياربكر الخ على ان القتلة شلت يدهم لم يسعهم ان يحفروا المقابر للاصداء لئلا تفوتهم الفرص فعوّضوا عنها بارماس محفورة منذ قديم الزمان اعني بالاجباب الناشفة والابار الواسعة العميقة .ومما يجدر بالذكر انهم بعد ما ذبحوا نصارى ويران شهر في حفتاله استدعوا اليزيدية من اوادغجي واضطروهم ان يجمعوا الجثث ويلقوها في المغاور فتأمل

الفصل الثالث عشر

السخرة

لم يكن ممكناً المسيحيين ان يجولوا في الشوارع بعد المذابح لان الجنود كانوا واقفين لهم بالمرصاد حتى اذا لمحوا احداً من بعيد صاحوا به وامسكوه وحملوه الاحمال الثقال . واتفق لاحد الرهبان اذ كان في السوق ان انقضّ عليه العسكر وكلفوه ان يحمل خشبة ضخمة الى دار الحكومة ولما اوصلها اضطروه ان يذهب ويستحضر غيرها فزاول النقل حتى المساء فقال له المامور اذهب ولا تنسَ ان تعود ايضاً في الغد . .

وصمموا يوماً ان ينقلوا خلقيناً كبيراً الى الشكنة فكان كلما مرّ احد بتلك الطريق ولو شيخاً تغضبوا عليه واغتصبوه حمله او

الزموه ان يؤدي لهم شيئاً من الدراهم فجمعوا مائة وثمانين غرشاً وما اوصلوا الخلقين الى نصف الطريق فاحسب يا هذا كم من المبالغ جمعوا حتى اوصلوه الى الشكنة

وارادوا يوماً ان يربطوا حزمة ثياب العسكر فعازتهم اشبار من الحبل فقصدوا الدكاكين وجمعوا عشرين حبلاً وكلفوا اصحابها ان يحملوها الى الرئيس . ولك ان تحزر هل كفت تلك الحبال لربط الحزمة ام لا

وحدث يوماً لعبد الجليل ايغو ان الجنود اطبقوا عليه وصاروا به الى المستشفى وسخروه ان يحمل الافرشة الوسخة الى مقام البرتستان فحملها صابراً ولما استثقلها اوتح الجندي شيئاً من النقود والقاها عنه وانهزم الى بيته وعلى الاطلاق نقول انه لم يفلت احد من السخرة

اما اصحاب البساتين فكان الجنود يترقبونهم حتى اذا وصلوا الى باب البلد ذهبوا بما استحضروا من الثمار الى بيوتهم ودفعوا لهم ورقاً بدل الفضة فكانوا ياخذون الورق مصطبرين على القضاء والقدر ؟ واذا اتفق لمثل هولاء ان يجلبوا تبناً او عفصاً او ملحاً او غير ذلك مما له دخل في مسائل الانصباء والاعشار راجت هناك اسواق الظالمة ولعب كعبهم فيضطر اصحابها ان يخلّوا ما احضروا ويغنموا نفسهم والا فيستجوذ الغاصب على تلك الاشياء ويلزم صاحبها ان يؤدي جزاء نقدياً . وقس على هولاء اصحاب الفحم والحطب فانهم ما كانوا يصلون الى احد بابي البلد حتى يتغامز عليهم العسكر ويلتقفوهم وياخذون احمالهم ويصرفونهم دون ثمن او يرضخون لهم ورقة فيقبضها الكردي ويلفها بعمامته ويعود الى قريته مصمماً ان يقطع رجله عن

المجيء ثانية الى البلـد . فتاتى من ذلك ان اسعار الثمار والغلات والفحم والحطب ارتفعت ارتفاعاً فاحشاً وتعسرت بواعث المعيشة. ولو طالت الحرب على هذا النوع لهلك البشر

الفصل الرابع عشر

الاطباء العسكريون

اعلم انه مذ ربيع عام ١٩١٦ ازداد عدد الجنود ونصب لكل فيئة طبيب يتفقدهم يومياً ويعالجهم ولكنه قل ما كان يفيـدهم الدواء لسوء المداراة ولعدم النظافة . وقد تعرفنا بعـدد صالح من اولئك الاطباء النصارى كالدكتور قسطنطين العزيز وبتاوني وبكريان بجورج والجلوس وليونيداس وكرابيد وقره كوز وغيرهم فكانوا باجمعهم نصارى الا راسهم فكان تركياً . وكانوا يخافونه ويمتثلون اوامره لئلا يسخط عليهم فيطوحهم في القرى وينقص عليهم عيشهم

ولما كان الراتب لايكفي لمعيشة الراس استحدث تاليف جمعية من الاطباء انحص المتجندين فإذا وجد احدهم مريضاً حرص عليه واستنزف منه مبلغاً واعطاه ورقة توذن باعفائه الى سنة او بضع اشهر.

وعرفنا من جملة الذين انعم عليهم بتذكرة كذا واخذ منهم اكثر من عشر ليرات: حنا شلمي وانطون شمعي ونعوم حمال وحنا جرجور واسكندر حمال وملكي كاتو . يوسف اسطنبولي والياس كجي وابرهيم قبس اسحق وداود منصور وسليم قسطن . ويخطر ببالنا انه اجتمع يوماً عند راس الاطباء زهاء مائتي رجل ليفحصهم على قوله فمن كانت تذكرته مرقومة بعلامة منه سرحه ولو لم يكن مريضاً

والا اضطره ان يواصل خدمته . وكان اذا ملا جيبه من الاصفر سارع في معالجة استعفائه وانطلاقه الى بلـد اسمن لئلا يذيع امره وينكشف سره فيخسر اللعبـة ويُعزل . فيأتي غيره ويجدد الامر قبل حلول المدة المعينة من سالفه ليفحص المعفيين فمن دفع نجا ومن لم يدفع مزقت تذكرته واعيد الى رفقته وقضى النصارى على هـذا المنوال سنتين حتى غلبت عليهم الشقوة واصفروا

واعلم ان من كانت علته ظاهرة وهو خالي الوفاض كان يقسره الرئيس على التجند مع علمه انه بانضمامه الى الجند يلحق بهم النفور او الضرر او العدوى . من ذلك ان الياس كذا المبتلى بداء الصرع رفع اليه ذات المرار امره فلم يجب الى طلبه بل اضطره ان يساق الى القلعة تارة وطوراً الى المستشفى فاتته النوبة فسرحه المامور الى بيته خلافاً لامر الطبيب وقس عليه

الفصل الخامس عشر

روساء الشعبة العسكرية

استفرص الفرصة روساء الشعبة العسكرية لخرق الحقوق وابتزاز المال فالقوا شباكهم للقنص واصابوا الغاية واحرزوا ثروة طائلـة ولاسيما توفيق بك وعاكف بك وحسيب بك فانهم هم والذين انتموا اليهم اشتطوا وتقطوا وحشوا بطونهم بمال البائسين والموزين فاستنبطوا في سنة الحرب الثالثة اصنافاً سموها المنافع العمومية ليوسعوا عـلى الجنود فيواصلوا البيع والشراء والاخذ والعطاء. وشملت تلك المنافع صناعة الخياطين والنساجين والخفافين والنجارين والدباغين والحدادين

على اختلاف طبقاتهم وكان للنصارى في ذلك الامتياز لانه قلّ من يحترف حرفة يتكسب بها سواهم. غير انه ما كان يتيسر للنصراني ان يفوز بذلك الحظ السعيد ويكتتب في خدمة المنافع الا بعد دفع المبالغ لرئيس الشعبة فيسجل الرئيس اسمه وكنيته في الدفتر ويتخوص منه مبلغاً شهرياً ويبعثه الى بيته

ولما ازداد عدد اصحاب المنافع امر الرئيس ان يربط كل منهم على كتفه خرقة حمراء كتبت فيها عبارة « المنافع العمومية » ثم بدلت بعبارة « مدافعة الملة » ثم اخترعوا شكلاً آخر سموه « الخدمة الخفيفة » خصوا به من كان منحرف المزاج نحيف البنية وتقاضوا منه مبلغاً شهرياً. وكان الرئيس اذا اتلف ما جمع فرض على الذين ذكرنا ان يجددوا الوثائق (لانها بليت ورثّت) ذلك ليكون الابتزاز متواصلاً والدفع والقبض غير مجذوذ فيضطرون جميعاً ان يدفعوا له شيئاً والا اعارهم طرف التعزز ومد لوثيقتهم يد التقزز ولحظهم شزراً وسرحهم وبعد هذا كان يضيف اوراقهم الى غيرها ويجعل نصيبها الحريق او الضياع

اما رجال دائرة الويركو فاذاعوا ان لا مندوحة لاصحاب الصنائع من تدوين اسمائهم في تلك الدائرة وقسروا كل شخص ان يدفع لهم اكثر من خمسمائة غرش ولربما اتصل المبلغ الى الالف والخمسمائة وكانوا يقولون له انه غدا بتلك الوسيلة معفي من تبعات الجندية واثقالها بالمرة ولكنهم بعد القبض كانوا يقسرونهم ان يواصلوا العمل. والتزم هولاء ان يحملوا الوثيقة على صدرهم كانها ذخيرة ثمينة لئلا تضيع فيلتزموا ان يجددوها بمشقة وكلفة وذهب وفضة

الفصل السادس عشر

الدياقونيون والفارّون

يعرف كل خبير انه منذ اعلان الدستور رفع روساء الملل النصرانية المعاريض الى العاصمة يطلبون اعفاء الاقليرس من التجند واجابت الدولة الى طلبهم . غير انه ما اعلنت الحرب الشعواء حتى انتقضت تلك الاوامر وخرقت تلك الحقوق وألغيت الانعامات وابطلت الامتيازات فغدا الشمامسة خاصة كغيرهم ملتزمين بالتجند فكان اولو الامر يزمجرون عليهم ويخوفونهم ويقبضون منهم المبالغ ليويدوا رسامتهم ويثبتوها ـ والا اضطروهم الى التجند بالرغم عن الاوامر الشاهانية ولو كانوا من اقدم الدياقونيين وأخبرهم . وبعد ان قبضوا ما قبضوا اوفدوا الى الروساء ليعينوا لكل كنيسة ومصلى دياقوناً فاكثر فكتب الروساء الاسماء والاعمار وارسلوها فمن دفع شيئاً صحت رسامته والا حُطّ واضيف الى الجند

ولما قل عدد الدياقونيين لسبب القتل او الموت رسم الروساء غيرهم ورفعوا اسماءهم الى حسيب بك رئيس الشعبة فاوفد محمد افندي الجاويش وشاكراً الخاوصي فراجعا الدفتر ورفعا الاسماء الى الراس فأيدهم. ولكنه بعد مضي زمن وجيز اضطر كل شماس دون الثلاثين ان يلازم العمل في المنافع العمومية . والنتيجة ان الشمامسة اصبحوا كغيرهم من قرن الحرب الى قدمها

اما الفارون فكانت مسئلتهم منوطة بالبوليس فكانوا يتندحون منتشرين في الشوارع فاغرين الافواه ليستاكلوهم او كانوا يباغتونهم

داخل البيوت فيفتشون ويتلقفون ما يجدون ريثما يشاهدون الفارّ فيقسرونه على المسير معهم او يدفع لهم راتباً شهرياً ليسكتوا عليه وما اكثر ما تجنوا على المسيحيين ولاسيا على النساء . على انا نعرض عن سرد الحوادث الخشنة ونكتفي بان نقول انهم لم يذروا امراة الا انزلوا بها الضرب حتى تدفع لهم من الصفر او البيض او تقدّم لهم ماكلا ملهوجاً و فاكهة حاضرة فينكصون على عقبهم ويوجلون نفث سمهم الى فرصة اخرى اطيب واحسن . وعلى الاطلاق نقول ان البوليس استرسلوا في كل الشرور والمفاسد حتى انهم لم يتركوا باباً للغدر الا فتحوه ولا طريقاً للظلم الا وسّعوه ولا قبيحاً الا تشغزوا فيه ولا سوءا الا ارتكبوه

ودخلوا مرة بيت شاب اضناه المرض منذ اشهر فصاحوا به صيحة كادت تخلع روحه واضطروا اهله ان يحملوه الى القومسير ولما وصلوا به اليه اضطره ان يلزم احد المستشفيات النظيفة ? فتفاقم مرضه ومات حتف انفه . وكبسوا رجلا ثانياً وارادوه على المسير معهم فأدى لهم مبلغاً استصغروه واستزادوا فلم يزدهم فاخذوا ما اخذوا ومضوا به الى القومسير فاستبشر به وشمله بنظره حتى استحصل منه شيئاً ورده الى بيته معافى . ودخلوا يوماً بيت جرجس خباز فبادر جرجس والتف بالحصير فدخلوا وبحثوا عنه زمناً فلم يجدوه وقصد احدهم الحصير والقى به الى الارض فسمع صوت كصوت مطرقة الحداد فضحكوا وضربه احدهم ضربة اتبعها برفسة واضطروه على المسير الى مقام البوليس . والفوا رجلا بزي امراة متوسداً فلم يثبتوه فخرجوا وسالوا طفلـه فقال هوذا ابي في الفراش فانقلبوا

ضاحكين مقهقهين ومضوا به على تلك الصورة الى مقام البوليس . ووجدوا غيره مختفياً في صندوق فحملوه هكذا . وانصبّوا مرة على امراة تغسل الثياب والحوا عليها في تسليم ابنها فافادتهم انه في دياربكر فلم يصدقوها بل اخذوا يمزرونها والقوا قدميها بالفلق (الفلقة) وعاقوا يضربونها فمر بتلك الطريق رجل نصراني وسمع الصياح فشملته الرافة ودخل الى البيت فاكد لهم ان زوجها بدياربكر فانصرفوا . والقصص في هذا المعنى كثيرة نكتفي بما اوردناه ليطلع القراء على ما افتعل البوليس من الحيف والاعتساف وركوب كل منكر وتحليل كل محرّم

الفصل السابع عشر

معرفة الجميل

من المقرر ان شكر المحسن فرض واجب والثناء على صاحب المعروف والكرم ضربة لازب على انه وُجد اثناء النوازل رجال نبلاء اشفقوا على المسيحيين وافرجوا عنهم واغاثوهم في مصائبهم فغدونا ملتزمين ان نؤدي مفترض الشكر لاريحيتهم ونسطر على صفحات كتابنا اسماءهم ملمعين بايراد شي من مناقبهم سائلين المولى الكريم ان يجزل لهم المثوبة ويصرف عنهم المشقة ويلحظهم بعين الرافة والشفقة

واول هولاء المحسنين : حلمي بك متصرف ماردين الذي كان من افهم الرجال واذكاهم وكان رحب الذراع مواظباً على الحسنى رفيع الهمة رفيقاً بالتوسع على الرعية وكان يحب السيد اغناطيوس

مالويان والسيد جبرائيل تبوني واسرَّ اليهما بمكنونات الاعداء ومضمراتهم الفاسدة . ودافع عن المسيحيين جهده . غير ان الوالي اللئيم ابى الا ان يعزله وينصب بدله اديباً كما ذكرنا ذلك في محله

تمسأ لايام تحطُّ ذوي العلى   وتعلي حطيط النفس والقدر والفخر

فالفاضل لا يعرف قدره ما لم يظهر امره ولا يحمد ذكره ما لم يجرب غيره ففي غياب حلمي بك واقامة خليل اديب لاحت الامانة والخيانة وظهرت الصداقة والعداوة

ثانيهم : شفيق بك متصرف ماردين فانه بعد ما سيق الرجال وذبحوا بذل وسعه في تخفيف الويلات على النصارى وحقن دماء النساء والاطفال ولكن اعداء الخير غلبوه وعزلوه ونصبوا مكانه بدري القبيح الذكر

ثالثهم : مخلص بك مدير التحريرات الكريم الذي تولى شؤون البلد في نياب بدري بك وشكري بك وقدري بك وآصاف بك حكام ماردين . خص بدماثة الاخلاق ولين الجانب واتصف بالمجاملة والمسايرة . وحذَّر اعوان الشرور مراراً شتى وجنَّبهم ركوب المنكرات فلم يصغوا اليه . واتصل بعد العناء الجسيم الى كشف بعض الضيم عنهم والمحاماة عن ذمارهم وساعد السيد جبرائيل تبوني الجليل في نكباته وخفف الرزايا عنه وعن جماعته

رابعهم : حسن تحسين بك الكركوكي النبيل رئيس الجاندرمة بماردين فانه منذ عيِّن نشر على المسيحيين سجوف المحاماة وفيأهم باظلال اللطف والاحسان حتى طابق اسمه مسماه فاحسن الى الجميع وكان وفوده علينا وفود الغيث على الارض الظمأى فاصبحنا نلهج بذكر

فضله وعوارفه ونتباهى بمحاسنه ومبراته . هو الذي عضد السيد جبرائيل في ملماته واسعفه في حاجاته ومهد له الصعوبات ودحر عنه جيوش النكبات . وبواسطته انقذ الحبر الغيور طائفة من المسيحيين المسبيين فتم فيه ما قيل

صديقي من يقاسمني همومي   ويرمي بالعداوة من رماني
ويحفظني اذا ما غبت عنه   وارجوه لنائبة الزمان

خامسهم : فارس جلبي بن الحاج عبد الغني الحاج كرمو كان نازه النفس حريصاً على الخير أبى مشاركة الخصوم وشنع على اهل السعاية والنميمة ولكنهم اتخذوا قوله مطرَّحاً فلزم داره وقت مشتعل الفتن وكان كلما قصده ذوو النفوذ نصح لهم ليكفوا عن القسوة والتعدي فلم ينتصحوا وكان يقول لهم مع ابي العتاهية

ارحم الناس جميعا   فهم ابناء جنسك
ابغ للناس من الـ   ـخير كما تبغي لنفسك

وهو قول مقتبس من نص الانجيل الكريم «كل ما تريدون ان يفعل الناس بكم فافعلوه انتم بهم» (متى ٧)

سادسهم : خضر جلبي الكومري رئيس البلدية الذي دافع عن الملة جهده ولم يدع مجالاً للعسكر الخمسيني ان يتعدَّوا عليهم ويفتكوا بهم وحامى كذلك عن السيد ثوفيلس جبرائيل تبوني يوم حاول بدري المتصرف ان يستاقه (هنا ف ٨ ص ٤٥٩)

ونضيف الى هولاء الاجلاء كامل افندي بن سري افندي واخوته الثلاثة الذين اشتهروا بحبهم للانسانية وتأسلوا اباهم الكريم وضارعوه في شمائله . ولكن كاملا فاق الجميع باخلاصه والمحافظة

الود السيد جبرائيل تبوني ولاسيما اذ تحامل عليه الخصوم وحاولوا قتله كما سترى . وزد عليهم عبد القادر جلبي القاشوخ الذي خص الثقافة باسرة كجو حتى انه يوم انتزاعها عن الوطن (هنا ج ٣ ف ٢٩) سار معها واستنقذها ورحلها الى حلب . واغاث القس يوسف تفنكجي الكلداني في ملمته وانقذ الشاب عبد الكريم حنا قره كله من هجمات الخصوم وغائلة القتل . ونذكر ايضاً بين هؤلاء النبلاء صائب افندي مدير الديون العمومية الذي افاد جرجس افندي وعزيز افندي عن مؤامرة الاعداء في شان اهدار دماء النصارى ثم صرف عنايته في انقاذهما وارسالهما الى حلب اذ لم يكن يبقى حينئذٍ في بلاد ما بين النهرين كلها مامور نصراني غيرهما

اخيرا نذكر عبد الرزاق جلبي الدباغ المعروف بابن الويل فانه هو الوحيد الذي قصد مطران السريان الكاثوليك وقت اشتباك الملاحم وتعهد انه يذهب معه الى الموصل وينقذه من الغوائل فشكر له الحبر وابان له انه لا يستطيع الى ذلك سبيلاً اذ كان يستصعب مفارقة غنمه وقت هجوم الذئاب عليها . واستقرض منه الحبر المشار اليه مبلغاً من الذهب دون ربح وصرفه في سبيل الفقراء والمعوزين. فما عدا هؤلاء الذين اوردنا اسماءهم لم نرَ احداً تصدى للمحاماة عن المسيحيين وسعى في درء الغاشي عنهم اللهم الا من لم يكن له نفوذ وكلمة . ونختم الكلام بالدعاء الى المهيمن المنان ان يضفي على هؤلاء وعلى من حاكاهم ثوب النعم ويبلغهم من الدنيا والآخرة خير الامل ويشملهم باطالة البقاء ويجزل لهم بواعث السرور والهناء ويكافئهم على اتعابهم باوفر الجزاء.

الفصل الثامن عشر

خاتمة النكبات

اصبح مسيحيو تركيا ولاسيما بقية الكاثوليك في ما بين النهرين سنة ١٩١٨ بين احياء واموات يتوقعون انقلاع جرثومة الافات وانقطاع مدة النكبات وانقشاع سحب المتالف والمخاوف . وكانت تتوارد اذ ذاك البشائر على لسان البرق ان الاب الاقدس ماربندكتس الخامس عشر راس الكنيسة الجامعة مستفد الوسع في نصح الدول ليضعوا حداً للمذابح ويخمدوا اجيج المعارك . وكان قداسته ينهج لهم الطرق التي يجب ان يعولوا عليها للفوز بالامن والراحة. وحرض لتلك الغاية لفيف الاقليرس الكاثوليكي لاقامة الذبيحة الالهية في ٢٩ حزيران ١٩١٨ ودعا الكرادلة والاساقفة والكهنة والرهبان والراهبات الى الكنيسة الواتيكانية فأحيوا تلك الليلة ساجدين امام الحمل الذبيح وكان الاب الاقدس يتلو الصلوات بصوت عالٍ يسمعه الجميع وهو يسال الله تعالى ان ينشر على العالم جناح تعطفه ويسيل للبشر جداول السلام والطمانينة

فبينا كنا على تلك الحال دهمتنا نكبة اخرى زادت في طين سالف نوائبنا بلة واضافت الى طنبورة مخاوفنا واخطارنا نغمة وحققت لنا ان الضغائن قادحة بعدُ على المسيحيين والعداوات وافرة على اية الدين . نريد بذلك حادثة السيد ثوفيلس جبرائيل تبوني مطران السريان بماردين ورفاقه في السجون والعذابات والمشقات واليك التفصيل :

ركب القطار من حلب الى ماردين سعيد معمارباشي السرياني

وبطرس ابن اخيه وكان بطرس فتى لم يبلغ الاثني عشر ربيعاً رحّلته الحكومة الى حلب في تموز ١٩١٥ مع والدته بنت عبد المسيح جنانجي واخوته الصغار (هنا ص ٢٨٨) ولما وصل بطرس وعمه الى الدربيسية قرب ماردين تعرّض لهما رجل مهاجر لئيم نفخ ابليس في اذنه ريح الغدر والخيانة فانتزع من الفتى محفظة دراهمه ودفتره وقلّبه فاذا في احدى صفحاته قد نسخ الفتى بخط يده نتفاً من الاخبار مما لها علاقة بالحرب والصلح التقطها في حلب من ذويه واصحابه ومن الاب سيمون الدومنكي المنزوي في دار الخواجات مركوبلي وافتكر ان يبلغها السيد جبرائيل تبوني مطرانه فكتب لذلك اسمه في راس الورقة . ولما قراها ذلك المهاجر الخبيث دفعها الى مامور السكة فأخذها الى جماعة من الموظفين كانوا متوجهين في فيلق يدعى الفيلق الاسلامي الى بلاد الفرس يراسهم نوري باشا شقيق انور وتوفيق بك اركاني حرب مدير القسم السياسي وصادق بك مدير التحريرات وتحسين معاون القومسير. وعلي القوقاسي وثروة وهداية واحمد ومحمد . وكان فيهم جواسيس يتوكفون الاخبار ويهيئون لكل حق باطلاً ولكل حيّ قاتلاً . ولما وقفوا على مضمون تلك الورقة شادوا عليها قصوراً وصروحاً وعلقوا عليها آمالاً فسيحة فقبضوا على الفتى وعلى عمه وعلى اربعة من المسلمين الاغنياء وذهبوا بهم الى تل هليف وبلّغوا المسئلة للقومندان فحولها الى توفيق بك المذكور وسار هو الى الموصل في طيّار

ولما درى توفيق بما عند سعيد من الاصفر والابيض استحكمت فيه الطماعية منه وحاول ان يأكل الغنيمة لكنه تخوف فاحجم وأجّل الاكلة واستدعى سعيداً وبطرس وضربهما وارادهما على كشف

المحجوبات والمضمرات . غير ان شركاء سعيد في الدراهم ناضلوا عنه ودفعوا مبلغاً وافراً لتوفيق واستخلصوا بقية الفضة وانقلبوا الى بيوتهم فبقي بطرس وعمه في تل هليف يستدعيهما توفيق كلّ اصبوحة وامسية ويضربهما ليقرّا بما يريد هواه لا بالحقيقة . ولما ظعن الفيلق الى نواحي الموصل في ٢٥ نيسان وصفا الجو لتوفيق وحده استدعاهما وروّعهما وضربهما بشدة حتى انتفخت رجلاهما ويداهما وجرت الدماء منهما وكان يقول للفتى اراك متضلعاً من السياسة خبيراً بالامور فاذهب وافتكر ملياً ثم عد واطلعني عمن استكتبك الورقة والى من قال لك ان تبلغها فاذا اظهرت لي ذلك كافأتك اعظم مكافأة والا قتلتك شر قتلة . ولما كلّ توفيق وملّ من معالجة المسئلة بالتهديد والتوريط والتمليق والوعد استفتح الشيطان ابا الخبائث وراح هو واحزابه يتلعون اعناقهم الموقوصة الى مناوأة السيد جبرائيل تبوني اذ كان الى ذلك العهد مشمولاً بالتعطفات والانظار السامية وجرّد عزيمته على ان يرشقه بنابل الكيد والدهاء ليصيب منه الغرض . فاختلى ببطرس ودفع له عشرين ليرة ورقاً وقال له اني تعديت عليك بعد ما وقفت على برارتك وهذا مرحّلك الى بيتك غير اني ارغب ان تفعل ما اقول لك . ثم دفع اليه ورقة بيضاء وقال له اكتب ما القنك او بالحريّ ما يوسوس الي عدو الانسانية .. وبعد هذا جعل توفيق يملي وبطرس يكتب ويده مرتجفة وقلبه يخفق: « الى المطران جبرائيل . . بشرى . الصلح يتم بعد شهرين . . قيصر المانيا راسه مشدوخ ورجله مجروحة . ولي عهده مقتول . . ابنه الثاني مجروح . . غوغاء في برلين . فرنسا منتصرة . . جنود الانكليز وصلوا الى دير الزور وعن قريب يدوخون

الوصل٠٠بلغ القس يوسف الكلداني ان حلب اسعارها غالية الخ الخ «
وبعد ان استنسخه الورقة الشيطانية كلفه ان يعرضها على سعيد
عمه ويشاوره ويرد اليه الجواب ٠ فسار بطرس الى خيمة عمه فسبقه
اليها توفيق الكار ليتنصت ولكنه تعذر عليه ان يصيب منها الغاية
فاستدعى اليه بطرس تكرارًا وقال له خذ الورقة التي استنسختك
الى جبرائيل مطرانك واطلب منه الجواب عاجلًا وهلم به الي واحذر
ان تفضح المؤامرة والا اهلكتك واهلكت اهلك وجميع من
ينتمي الى عشيرتك

فاخذ الفتى الورقة والهدية وركب القطار الى ماردين فوصل نصف
الليل الى المحطة والفى عبدالقادر نازو فاوفد معه نفرًا اوصله بسرعة
الى البلد فسار توًا الى دار سعيد سيدي وافاده عن المسئلة ٠ ولما
اصبح قصد دار منصور جبوري وعرض عليه الورقة واستشاره فقال
له : لست اتشبث بمسئلة كهذه ابدًا ٠ فعاد الفتى الى دار سعيد
سيدي فقصدا مقام البطريركية السريانية وسار معهما حنا جرجور
ودفع بطرس تلك الورقة الى السيد جبرائيل الجليل وصرح له بخباثة
توفيق وكيده وكشف له ما اسرّ اليه ٠ فتنبه المطران للمكيدة
وزجر بطرس وانتهره واخرجه من غرفته وردّ اليه الورقة وقال له
أعدها لمن اعطاكها٠ فقصد بطرس بيت عمه وما لبث الا القليل حتى
بغته صالح البوليس واستعجله على المضي معه الى مقام البوليس فاختلى
به القومسير واستوضحه عما افتعل وعما دار بينه وبين المطران من
الحديث فافاده ان المطران انتهره واخرجه من غرفته ساخطًا٠ فشدد
عليه القومسير واراده على طلب المطران تكرارًا ليكتب الجواب

فلم يصغ اليه بطرس فضربه وامر بحبسه وجعل يستنطقه كل يوم
مرتين٠ وحضر مخلص بك مدير التحريرات ايضًا واستجوبه فلم يثبت
عليه حجة ثم هجم عليه محمد كبوشو وثم يضربه ويلطمه ويقول
له لن اعدل عن ضربك ما لم تدفع لي العشرين ليرة التي اعطاكها
توفيق بك فدفعها له وظلّ محبوسًا

وصباح اول ايار وافى الى مقام البوليس المستنطق ومدعي العموم
وجماعة من الموظفين واستدعوا بطرس وتهددوه بالذبح واضطروه ان
يقصد المطران ويطالبه بالجواب فتمنع وقال قتلي خير من ذهابي ٠
فاستاقوه الى دار الحكومة واوفدوا شرذمة من الجند قبضوا على
الحبر البريّ ومضوا به الى مقام البوليس فدائرة الاستنطاق واستجوبوه
واستجوبوا بطرس بحضوره فلم يثبتوا عليهما كليهما حجة٠ فسرحوا
الفتى والزموا الحبر الجليل ان يبيت ليلته تلك في احدى غرف المامورين
فتخلى له صديقه عبد الصمد افندي راس الجاندرمة عن غرفته عربونًا
لاخلاصه ومحبته وراح يعالج المصلحة لدى مدعي العموم لعله يطلقه٠
غير ان المدعي اللئيم أصرّ على رايه وكتب الاوراق وسيرها الى المجلس
العرفي بدياربكر عش المفاسد٠ وادخل في التهمة القس يوسف الكلداني
وسعيد سيدي وعبد المسيح سفر ومنصورًا جبوري كنعو وجيه طائفة
السريان القديم وامر بحبسهم ثلاثة ايام ٠ اما مدير التحريرات وعبد
الصمد افندي وغيرهما من الاصدقاء فانهم افرغوا جلّ للساعي حتى
اطلقوهم جميعًا تحت كفالة ريثما ترجع الاوراق من دياربكر٠ وحرجوا
على المطران الخروج من غرفته ٠ ولا يسعنا ان نورد ما احاق بالراعي
اثناء ذلك من الافكار الزعجة والهواجس المقلقة وما تتابع على قلبه

من الغموم والاكدار اذ كان يتوقع الجواب بذاهب الصبر ويتفكر في العاقبة ويقول ان امامي عقبة كوودا لا بدَّ لي من الورود عليها لاني عارف حق المعرفة ان الاعداء متحضون علي يبغون لي الغوائل انى ما سبب

ويوم الخميس ٩ ايار تعجل الى البلد توفيق بك الداهية واوفد من فوره يطلب بطرس صاحبه فلما رآه تجهمه وعطف عليه عطفة الحنق المغتاظ وقال له تبا لك من كافر خائن بحت بالسر الى المطران وما تنجزت ما اقنتك ثم قام اليه ولطمه وطرده وقال لا بد من قتلتك عقابا لخباثتك اما بطرس فانهزم الى حلب بعد ما رشى البوليس .

وليلة وصوله اوفد نهاد باشا في طلبه اليه تحت الليل فالقي القبض عليه وعلى اخويه الصغيرين واستاقوهم ثلاثتهم الى مقام الضباط بالعزيزية فاستنطقهم جمال بك اركاني حرب ثم سرحهم الواحد تلو الاخر . لكن الخصوم بماردين تمادوا في غيهم واصرّوا على رايهم فاصطفوا محمدا كبوشو الشهود وبعثوه في اوراق الى حكومة حلب ليرجع ببطرس الى ماردين . ولما طالعها القومسير ارسل من قبض على الفتى وزجه في السجن فظل ١٢ يوماً وشخص اليه كبوشو واراده على الرجوع . غير ان فتح الله جرباقه توسط في المصالحة وعرض الامر على جمال بك فاضطرَّ كبوشو ان ينقلب الى ماردين وحده . واستدعى جمال بك الاب سيمون الدومنكي وبطرس وقرأ الورقة عليهما فانكراها فصرف البادري وقال لبطرس يلزمك الحضور الي متى استدعيتك . وصادف كبوشو يوماً الفتى في الطريق فدسّ اليه ان يخلط اسرة جانجي واسرة كنعو في حكايته وقال له ان فعلت

ذلك فزت برضى الحكومة واحرزت شرفاً وسيماً

اما السيد جبرائيل المحبوب فكان يتململ على فراش الاضطراب ينتظر الجواب من رضوان بك رئيس المجلس العرفي بدياربكر ولبث اربعة واربعين يوما تساوره الافكار وتورقه الهموم حتى ذبلت عيناه الكريمتان من الكرب وازدادت بنيته النحيفة ضعفاً ووهناً . وكان نائب التصرف مخلص بك واصحابه يترددون اليه ويسلونه

وفي ١٣ حزيران ورده الامر بالشخوص الى حلب المحاكمة فغادر ابرشيته العزيزة يوم الاثنين ١٧ حزيران وسافر معه حقي البوليس وجميع المشتركين معه في المسئلة كالقس يوسف تفنكجي الكلداني وسعيد سيدي وسعيد معمارباشي وعبد المسيح سفر الا منصور جبوري فان بعض ذوي النفوذ ابقوا عليه لاجل غير محدود باجرة معلومة ولما وصل الحبر الجليل الى حلب قصد كنيسة السريان الكاثليك ليبيت فيها ليلته فلم يذره الوكيل فتنغص المطران واستودع امره الى رب الحول والعضد وعاد القهقرى مصطبرا على محن الزمان وكوارثه وقصد مركز الدرك بالعزيزية وبات تلك الليلة السوداء الحضيض فراشه والسقف غطاؤه وظل على تلك الحال ثلاثة ايام

ويوم السبت ٢٢ حزيران استدعي الى الادارة فاستنطقه الرئيس فلم يثبت عليه حجة فاعاده الى الحبس وبعد ثلاثة ايام نقلوه الى غرفة دنيئة موسخة لاقى فيها ضنكاً شديدا واذى كثيراً ولم يكن فيها الا يوزباشيان فقط حبسا فيها لجريمة كبرى ارتكباها . وحرجوا على خادمه الدخول اليه بتاتاً . وعند ذاك تجهز القس يوسف كاتب سرّه الذي سبقه الى حلب وطفق يراجع اولي النفوذ ويبحث عن

الطرانى الوصلة الى نجاة السجين العزيز كيفما كان الامر فاشار عليه المطران ان يقصد جبل لبنان وينبئ السيد البطريرك عن المسألة ليتلافاها سريعاً فبادر الكاهن النشيط وصار الى دير الشرفة والحف على غبطة السيد البطريرك ان يسارع في انقاذ الراعي من العدو العاتي . فراجع غبطته حالاً قنصلي المانيا والنمسا وكتب الى السيد دولجي القاصد الرسولي في العاصمة كي يتدارك الامر لدى الباب العالي ويبذل وسعه في انجاء مطرانه المحبوب. ثم قال القس يوسف اعلم يا ولدي ني مستعد ان ابذل كل غالٍ وثمين في سبيل السيد جبرائيل فارجع امسرعاً الى حلب ومتى وثقت بامر نجاته حوّل عليَّ بكل ما يقتضي اذلك بشرط ان تنحسم المسألة تاماً . فشكر القس يوسف لغبطته واستجمع قواه وركب الى حلب مسرعاً وظلّ غبطة السيد البطريرك يراسل المراجع العالية ليفوز بالامل

اما السجين العزيز فكان الخصوم يحاولون ان يجنحوه ويوثموه ويبحثون عن مكيدة تمكنهم من سحقه واتلافه غير ان الله جلت احكامه ابى الاّ انقاذه من دهائهم والهمه الثقة والبسالة وجعله كصرح لا تزحزحه اعصار الاراجيف ولا تفزعه الاهوال والاخطار بل آتاه الصبر الجميل على احتمال كل مشقة واذى . على ان الاعداء احضروا الى غرفته في ١٠ آب قوماً من الرعاع والسفلة واضطروهم ان يلزموها فتلبدت فيها الروائح المستكرهة وعمّ الوسخ المسجونين كافة فقضوا تلك الايام بالمرائر والضيقات . ثم راح الخصوم يلفقون الشكاوى على المسجونين مع السيد جبرائيل ليصيبوا منهم الغرض وارسلوا في استحضار منصور جبوري من ماردين واضافوه اليهم

وزجوا معهم في السجن فتح الله جرباقه وحاولوا ان يحبسوا كلّ من انتمى اليهم. ولما ايسوا من اثبات حجة عليهم استنزفوا منهم قسماً من المال وسرحوهم في ٢٠ اب فاطلقوا اولاً منصوراً كنعو وفتح الله جرباقه والقس يوسف تفنكجي الكلداني[1]

(١) ألمّت بالقس يوسف المذكور نوائب كثيرة جداً اليك خلاصتها : انهزم اولاً الى سنجار في ٥ تشرين الاول ١٩١٥ وخدم ثم جالية المسيحيين خدمة نصوحاً ولا سيما لما فشت فيهم العدوى حتى انه حمل غير واحد من المتوفين وذهب بهم ولحدهم . وفي ١٤ تشرين الاول ١٩١٦ عاد الى ماردين فأحسّ به الاعداء وادعوا انه جاسوس لفرنسا بعثته ليتجسس الاخبار ويراسلها في شؤون الارمن ويوقفها على سرائر تركيا واعمالها الخفية . ولما كان ١٩ كانون الثاني ١٩١٧ كبس بيته مصطفى معاون القومسير وكشو وحقي البوليسان وساروا به الى قدري بك المتصرف . فاستفسره عن اصله ووطنه واستوضحه عن مدرسته وعمّاذا صار الى سنجار فاجابه على ذلك كلّه فأمر بانزاله الى السجن . فنهض عليه نوري البدليسي وضربه ضربات شتّى حتى وقعت اظفاره عن اصابع رجليه . وفي ١٤ اذار ١٩١٧ سُيّر الى دياربكر فاستكشفه مصطفى نوري رئيس المجلس العرفي عن حاله ثلاث عشرة دفعة وارسل اوراقه الى مصطفى كمال باشا قومندان الفيلق الثاني . وظلّ الاب المسكين في حبس دياربكر ينزل به اصحاب المروءة اعني القسوة الوان العذاب كنتف الشعر وجلف الاظفار وحلق الراس ذع الضرب والجلد والرفس واللطم . وطالت في مساكن الظلمة اقامته لا يجد ذريعة للتملص من ضيقته حتى ١٦ حزيران فوافى أمر اعدامه فسار اليه الملاّ وعرض عليه الاسلام فسخر من كلامه وقال له : موتي في سبيل ايماني خير من حياتي مسلماً . ثم ميّز الحكم بمساعدة رضوان بك والمطران سليمان واستحصل فسخه في ١٥ آب . وفي ١١ تشرين ثاني رافعوه ايضاً وبرروه فعاد الى ماردين في ٢٧ شباط ١٩١٨ خائر القوى ضعيف البنية لكثرة ما ساموه من سوء العذاب وجرعوه من المرائر ثم صار له ما صار كما ترى في المتن . وعلى من شاء الوقوف على تفاصيل اخباره ان يراجع الكتاب المزمع ان ينشره بالفرنسية تحت عنوان
Quatre ans de souffrances

واستمر المطران الجليل في تلك الغرفة القذرة في عيش نكد . أكله متزور وسهره متواصل وقلبه مجروح لا رافد ولا مساعد له الا رب السماء . وكان البوّاب لا جزاه الله خيراً يتهدده بالضرب والتنكيل وسفك الدم حتى انه ثار عليه ثائره يوم الثلاثا ٢٧ اب فانتضى سيفه ليضحي بالحبر البريّ فوعده المطران بهدية ثمينة صرفته عن خبيث نيته. غير ان المخاوف تواترت والهموم ازدادت والاخطار تفاقمت . واذاع الخصوم في حلب انهم مزمعون ان يجرروا ابناء السريان الكاثليك ونشبوا في الامر فكان ذلك ضغثاً على ابالة وشملت المخاوف جميع افراد الطائفة

ويوم الخميس ٥ ايلول استاقوا المطران الى جبل سمعان في ١٥ نصرانياً وحشروهم في مغارة ضيقة كادوا يختنقون فألهم الله احد الجند الشفقة فأذن لهم في الخروج ردحاً من الزمان لاستنشاق الهواء ثم اهبطهم الى المغارة. وفي ٧ ايلول استدعوا الحبر النبيل الى الادارة العرفية واستاقوه الى الحبس العامّ حيث راى جملة من كهنة الارمن ووجهائهم

ويوم الاربعا ١٨ ايلول غدا الحبر طريح الفراش يعذبه الالم والوجع داخل السجن فاستصرف الله المكاره والمضايق وسأله القوة والشجاعة واقرّ بذنوبه عند احد الكهنة المسجونين وتهيأ للرحيل الى دار البقاء. غير ان المولى الكريم منّ عليه بالعافية وظل كذلك حتى ٢٩ ايلول فطلبه المجلس العرفي واستجوبه شكري بك الرئيس وعمر فخري بك رئيس التحقيقات وادّعوا ان الدولة الانكليزية نصبته اماماً الجواسيس بماردين وكلفته ان يطلعها على حركات الاتراك ويهرّب

اسراها . فما سمع المطران تلك التهم حتى اعتراه الذهول والعجب فانكرها بتاتاً وقال : كنت اظن اني لغير هذا السبب أُحضرت . على اني اقول بصراحة: كيف يتيسر لي وانا مقيم في جبل ماردين المنفرد ان أراسل الانكليز. بل كيف يمكنني ان اهرّب اسراهم . اما ترون انتم ان هذه الشكاية ملفقة زورية ؟

اخيراً لما كان صباح تشرين الاول لاذ الحبر بشفاعة سلطانة الوردية ونذر ان يكرس لها ابرشيته ويذيع عبادتها بكلّ مكنته وفي اليوم عينه استدعوه واستدعوا الاب سيمون وسعيداً سيدي وسعيداً معمارباشي والفتى واستنطقوهم تجاه بعضهم بعض فحكموا بتبرئة المطران مما قرفه به توفيق بك جرثومة الفتنة وقضوا على الاب سيمون ان يلزم السجن سنتين بعد ما تحققت عندهم برارته. واخيراً قالوا لبطرس امض اليوم الى بيتك ومتى بلغت الرشد حكمنا عليك بالسجن ثلاث سنوات . فقال بطرس « الله كريم . من الان الى ثلاث سنوات من يعرف ماذا يصير »

على ان غبطة السيد البطريرك والسيد دولجي القاصد الرسولي أبديا في مسئلة المطران جبرائيل غيرة وشهامة وتكبدا اتعاباً وافرة استوجبا افضل الجزاء من الرب المنان وخلدا لها اجمل الذكر في كل قلب ولسان . وبعد ان خرج السيد جبرائيل من سجنه قصد الكنيسة شاكراً للرب وظلّ في البطركخانة حتى ١٦ تشرين الاول فعوّل على الرجوع الى ابرشيته فتوسل اليه الحلبيون ان يمكث عندهم فأبى وغادرهم في ١٧ تشرين الاول ومساء الغد وصل الى ماردين فخرج المسيحيون لملاقاته مسرورين شاكرين المولى الذي صانه من

الغوائل في ذهابه وعذابه وسجنه وايابه . وفي الحق ان هذا الحبر النبيل شوهد وقت المامع والشدائد ثبتاً وقورا وحين ورود المكاره والنوائب جلداً صبوراً . وفي ايار ١٩١٩ ورده الامر من غبطة السيد البطريرك ان يصير الى حلب عاهداً اليه في غيابه النيابة العامة على الطائفة . لا برح مقيماً في كنف ستره تعالى متقلباً في فضاله مرموقاً بعين تعطفه مشمولاً بتوفيقاته في جميع المشاريع الخيرية

الفصل التاسع عشر

تتمة حوادث الحرب

وبينما كان الاتراك واصحابهم يضحكون الى الدنيا والدنيا تضحك اليهم وقد عقدوا الامال على النصر النهائي اذا بجيوش الحلفاء قد اقبلوا الى سواحل البحر المتوسط فدوّخوا الثغور ودخلوا فلسطين والشام وملكوا بغداد والموصل وهزموا الالمان اقبح هزيمة ودخلوا الى حلب في ٢٦ تشرين الاول وواصلوا السير حتى تل ابيض . فاضطرت تركيا ان تطلب الهدنة فتوقفت حينئذٍ جيوش الحلفاء وظل الاتراك يشغلون بقية بلاد ما بين النهرين الى يومنا

وشخص الى ماردين في ١٦ كانون الثاني ١٩١٩ مفتش انكليزي صار توّاً الى مركز النقطة العسكرية فانتهره البوّاب وحرّج عليه الدخول فعاد المفتش الى مقام المرسلين الاميركيين ولما بلغ ذلك خضر جلبي رئيس البلدية بادر اليه مستعذراً وذهب بهِ الى داره . وفي الغد كتب المفتش اعلاناً اشار ان يوضع في المقامات الرسمية ليجرى بموجبه . وكانت خلاصته التحذير من التعدي وخرق الحقوق والقتل كأمس

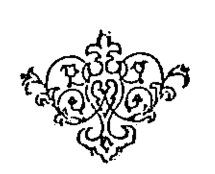
وما قبل . ولما عوّل المفتش على ركوب القطار ثبّطه الضباط وازعجوا خاطره فلم يكترث لتهديدهم فركب الى حلب . ومذ ذاك جعل المفتشون الانكليز يختلفون الى هذه البلاد بغية ان تسود الطمأنينة والسلامة

ووصل الى ماردين في ١١ تشرين الاول ١٩١٩ السيد بيدروس قوينيان مطران الارمن الكاثليك بصفة زائر عام ليلمّ شعث الطائفة العزيزة ويرمّم ما تهدّم ويصلح ما تقوّض واقام الاب اندراوس احمراني مدبرا للابرشية المحبوبة ريثما تصطلح الاحوال ويعلك الامن والسلام

الى هنا ما امكننا ان نسطره اليوم ملتمسين من المولى الكريم ان يجمل تعبنا آتلاً لمجده وانتصار امنا الكنيسة الكاثليكية عروسه المحبوبة آمين



فهرس



اصلاح غلط

وقع اغلاط طفيفة عدلنا عن اصلاحها لانتباه القارئ اليها واكتفينا بالاشارة الى بعضها : ص ١٤ س ٢ خاضعت بدل خاضعة، وص ٢٨ س ١١ دعقا ـ دقعاء وص ٣٣ س ١١ ودير ـ وديرًا وص ٣٨ س ١١ منها ـ منها وص ٤١ س ١١ يستطيعوا ـ يستطيعا وص ٧٢ س ١ واستبداها ـ واستبدادها وص ٨٨ س ١٣ ثلاثين ـ ثلاثون وص ١١٨ س ١٥ ويلشطوهم ـ وينشطوهم وص ١٣٩ س ١٣ عشر ـ والعشرون وص ٢٠٣ س ١٣ يتزع ـ يتزغ وص ٢٣٨ س١٨ محالى ـ مخابىء وص ٢٧٣ س ٧ وفضوحهن ـ وفضحوهن وص٢٧٧ كناتي ـ كنائني وص ٢٧٩ س ٩ اتجهل ـ اتجهلون وص ٣٠٧ س ١٥ ايلول ـ آب وص ٣٦٧ س ١٥ اَمـه ـ امًا وص ٤٥٧ س ٤ مختصرنا ٠٠ لاَ ـ مختصرنا ٠٠ الاَ وص ٤٨٣ س ٦ زوجها ـ ابنها ووردت بعض المرار الايادي بدل الايدي ومحتار بدل مختار ٠٠٠

صدرت الطبعة الاولى من هذا الكتاب سنة الف وتسعماية وتسع عشرة
واعيد طبعه على الاوفست سنة الف وتسعماية واحدى وسبعين

tion de son Église, et l'a protégé en d'autres circonstances encore non moins difficiles, p. 295; emprisonnement des moines de S^t Ephrem, leur libération; suite du récit de la déportation des femmes jusqu'à la fin de Septembre; leur courage intrépide au milieu des tortures.

Dans la 4^e Partie nous avons parlé longuement des massacres de Mésopotamie à Orfa, Diarbékir, Déreké, Ouairan-Chahr, Ras-el-Ain, Deir-el-Zor; chrétiens exilés à Sinjar; massacres à El-Jézireh, Séert (mission des P.P. Dominicains), Karboran, et aux villages de Tour Abdin: Deir-el-Oumor, Deir-es-Salib, Bassebrina, Mediath, et Salah; au chapitre 16, p. 401 nous avons parlé du massacre du docteur Naman Kara-Golla avec sa femme Stella, fille de Jean Tolo de Baltimore; siège de Ain-Ouard à Tour-Abdin; massacre à Kafar-Josa, Baté Kelleth, Hessen-Kifa, Es-Sor, Nsibin et Dara; couvent El-Zafaran, pour les Syriens-Jacobites; massacre des chrétiens de Kalét-Mara, Maçarta, Bafaoua, Banabil, El-Mansouryé et El-Gollyé; nous terminons cette 4^e Partie par le récit des massacres à Tall-Arman.

La 5^e Partie embrasse un peu plus de 50 pages: vente des biens des Arméniens, découverte de leur argent et objets précieux cachés; arrivée à Mardin des Turcs d'Arménie pour occuper les maisons des Arméniens massacrés; la peste; les cimetières, la famine, orphelinat et hôpital des Syriens catholiques; dangers qu'a courus M^gr Gabriel Tappouni en sauvant beaucoup d'enfants arméniens; les trois Pères Dominicains retirés dans l'église des Syriens catholiques du 26 Décembre 1914 au 18 Novembre 1916; un orphelin sauvé du massacre; arrivée en Mésopotamie d'Anwar Pacha avec des officiers allemands; puits, grottes et montagnes qui ont servi de lieu de sépulture aux cadavres des chrétiens; l'armée, les diacres et les fuyards; au chapitre 17 nous

avons adressé nos remerciements à ceux qui ont protégé les chrétiens et contribué pour leur part à les soulager dans leur détresse; et nous n'avons pas pensé achever mieux notre ouvrage qu'en racontant dans leurs détails l'arrestation de M^gr Gabriel Tappouni, sa comparition devant la Cour Martiale à Alep, son emprisonnement avec le R. P. Simon, supplices variés, enfin libération et retour à Mardin; armistice, occupation de la Syrie jusqu'à Tall-Abiad par les armées des alliés; arrivée à Mardin de M^gr Pierre Koyinian visiteur apostolique pour les arméniens catholiques, le 11 Octobre 1919.

Et ce malheureux pays théâtre des crimes les plus révoltants et des abominations les plus infâmes en plein siècle de civilisation, languit encore jusqu'aujourd'hui sous le joug de ses bourreaux; nous espérons qu'on mettra enfin un terme à ces boucheries humaines qui ont dépeuplé ces régions autrefois si florissantes, et que pour prix du sang de tant de martyrs si injustement répandu ces pauvres pays obtiennent de voir des temps plus calmes et des jours meilleurs, pour le développement et l'extension du christianisme et le triomphe de la croix!



chapitres qui suivent on trouvera depuis son origine l'histoire de l'Eglise Arménienne, Syrienne et Chaldéenne, de la mission latine des P.P. Capucins, et de la mission protestante; au chapitre 16, nous avons parlé des massacres de 1895 à Diarbékir, Orfa, Mardin et ses alentours.

Dans la 2e Partie, p. 67-147, nous avons groupé les nouvelles de la guerre depuis sa déclaration jusqu'au mois de Juin 1915, nous avons essayé dans les 5 premiers chapitres d'exposer les causes de la guerre; et protesté contre les Etats qui n'ont point voulu défendre la cause des chrétiens innocents; dans les chapitres qui suivent sont relatées au jour le jour les nouvelles de Mardin; au chapitre 14, p. 114, nous avons parlé des P.P. Capucins, des Sœurs Franciscaines et de trois Pères Dominicains, les R.R. P.P. D. Berré, J. Rhétoré, et H. Simon; au chapitre 18 nous avons dit comment les soldats turcs ont envahi les églises pour arrêter les jeunes gens qui ont atteint l'âge requis pour le service militaire; au chapitre 19 nous avons parlé du Firman et de la Décoration envoyés de Constantinople à Mgr Malauian, de l'occupation de l'église des Arméniens, et nous avons reproduit textuellement la lettre d'adieux de Mgr Malauian adressée à ses fidèles pour les exhorter à persévérer dans la foi, p. 135; au chapitre 21 arrestation et massacre du P. Jean Chouha, prêtre chaldéen.

Dans la 3e Partie nous parlons des déportations, des emprisonnements et des massacres, p. 118-331; nous avons nommé d'abord les auteurs des maux infligés aux chrétiens, tels que Rachid Wali de Diarbékir, Hadj Zelfi député de Diarbékir, Khalil Adib, le Mutésarrif Badri, l'odieux Mamdouh, et autres ...; au chapitre 4, p. 161, arrestation de Mgr Malauian avec une partie de ses fidèles, et tortures qu'ils eurent à subir dans les

prisons; on verra au chapitre 5 comment les turcs ont jugé Mgr Malauian et l'ont condamné aux supplices les plus affreux; dans les chapitres qui suivent nous avons parlé tout au long de l'arrestation des chrétiens, de leur emprisonnement, de la déportation du 1er convoi composé de Mgr Malauian, des prêtres de divers rites, et de 417 chrétiens catholiques, et leur massacre, p. 184-198; chapitre 10: nouvelles mensongères répandues au sujet du 1er convoi; chapitre 11: prières et vœux des chrétiens; chapitre 12, p. 207, déportation d'un second convoi; chapitre 13: massacre de 84 chrétiens; chapitre 15, retour à Mardin des survivants du deuxième convoi, renvoi des Syriens chez eux, pour laisser dans les prisons les arméniens seuls; chapitre 16, tortures imaginées par la barbarie turque, détails d'après le récit de ceux-là mêmes qui ont subi ces tourments affreux, p. 226-237; au chapitre 17, massacre du reste des Arméniens; nous avons consacré le chapitre 19, p. 224-251, à la France protectrice des chrétiens; nous y parlons aussi du massacre d'un Père Capucin français le P. Léonard qui a eu la bienveillance de nous donner à copier les nouvelles qui se passaient journellement à Mardin; fermeture des églises; certains arméniens sont contraints d'abjurer la foi pour embrasser l'islamisme; conduite scandaleuse des fonctionnaires turcs et leurs crimes; arrivée des convois d'Arménie; massacre du jeune Antoune Mamarbachi par Gobecho emprisonné plus tard à Alep; chapitre 27, p. 278, déportation de Mardin du 1er convoi de femmes et leur massacre, p. 283; nous avons parlé ensuite des moines du couvent de St Ephrem pour les Syriens catholiques, et la lettre d'adieux à ses fidèles de Mgr Gabriel Tappouni, vicaire patriarcal à Mardin, qui dans ces jours de persécution et d'injustice se disposait lui aussi au martyre, mais le bon Dieu l'a conservé pour l'édifica-

AL-QOUSARA
FI NAKABAT ANNASARA

(The Calamities of Christians)

By

An Eyewitness

An authentic rare document which describes in affective comprehensive details, what was commited against the Christians, in Turkey and Mesopotamia, and particularly in Mardine, of oppressions, aggressions, kidnappings, captivities, massacres and other sorts of scandalous crimes, in the year 1895 and during the period extending from 1914 to 1919.